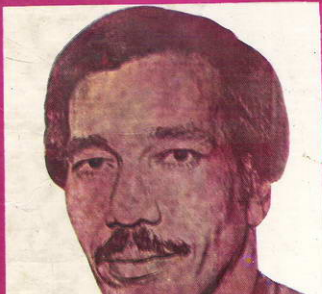
أمل دنقل

الأعمال الشعرية الكاملة



أمل دنقل

الأعمال الشعرية الكاملة

مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الثالثة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مقدمة

الدكتور / عبدالعزيز المقالح

« أمل دنقل . . أحاديث وذكريات »

لم تكن وفاة أمل دنقل مفاجأة لأحد من الأدباء في الوطن العربي . فقد كان كثير منهم يعيشون على أعصابهم قلقاً وانتظاراً لاعلان نبأ الوفاة ، فمنذ ثلاثة أعوام والشاعر الكبير يتعذب ويتساقط قطرة قطرة ونبضاً نبضاً ، وكان واضحاً بعد اكتشاف نوع الداء الذي انشب أظافره في الجسد النحيل أنه لن يبرح حتى يسلمه للموت ، وأنه لا أمل في العلم ، وأن أقصى ما يقدمه للانسان العاجز لا يزيد عن تأخير ساعة الوفاة أو إطالة أيام العذاب !!

ومن الملاحظ ـ ألاحظ ذلك في نفسي ـ أنه بالرغم

من أن وفاة الشاعر الكبير لم تكن مفاجأة إلا أن إعلانها المتأخر قد هز المشاعر وكان بمثابة صدمة عنيفة لأصدقاء الشاعر ومحبيه أفقدهم القدرة على الكتابة الشعرية أو النثرية على حد سواء ، وبما أنني أحد أصدقاء أمل دنقل واحد الذين رافقوه وقرأوه عن قرب ، فقد أفقدني النبأ المتوقع القدرة على التفكير والقدرة على الامساك بخيوط التعبير عن ألم الوداع ، واكتفيت باسترجاع بعض الأحاديث والتقاط صور بعض الذكريات الغارقة في قاع الذاكرة ، وبعض هذه الأحاديث والذكريات يعود إلى أيام قليلة وبعضها الآخر يرجع إلى سنوات ، فقد عرفت الشاعر الراحل في أواخر الستينات وقبل أن يظهر ديوانه الأول الذي شغل به الشعراء . وقد ربطت بيننا ـ منذ أول لقاء ـ مودة كبرت مع الأيام واتسعت في رحاب الكلمة وزاد تقديري له وإعجابي به عندما أصبح شعره كله صوتاً مكرساً لقضية الشعب العربي في مصر . وبما أن الأحاديث والذكريات عن أمل دنقل الصديق والشاعر ـ كثيرة وحاضرة بكل وقائعها ورموزها فإنني سأحاول اختيار أقلها وأقربها إلى الوجدان العام ـ ولأن النهاية دائماً هي الأقرب وهي في حد ذاتها الذاكرة التي لا تمحى فإننا سنبدأ من النهاية .

الحديث الأخير :

حدثني صديق كان في القاهرة منذ أسابيع فقال :
ذهبت إلى المستشفى الذي يرقد فيه الصديق المشترك أمل دنقل ، دخلت الجناح الذي يقيم فيه ، وسألت إحدى الممرضات عنه فأشارت بيدها نحو غرفة معينة ، فتحت الباب ونظرت داخل الغرفة باحثاً عن أمل الذي ودعته منذ خمس سنوات ، لم أجده هناك رأيت إنساناً لا يمكن أن يكون هو الشخص الذي أعرفه عدت أدراجي بعد أن أغلقت الباب ورائي وذهبت مرة أخرى إلى الممرضة لأسألها عن غرفة أمل دنقل الشاعر ، فأشارت مرة أخرى إلى نفس الغرفة ، وعدت لأفتح الباب وأفتش في جوانب الغرفة عن أمل فلم أجده وهممت بالتراجع مرة ثانية إلا أن أمل عرفني، فناداني باسمي . صوته هو الذي لم يتغير ، أما

جسمه فقد صار شيئاً آخر ، أي عذاب رهيب يفوق الخيال هذاالذي تعرض له الشاعر ؟ هكذا سألت نفسي وأنا أتوجه نحو السرير الذي يرقد عليه ، وكنت قد قررت أن أتمالك وأن لا يبدو على وجهي أي تأثر أو انفعال يثير في نفسه ، الألم ، الأنين ما كدت أراه بتلك الحال حتى انفجرت باكياً ، لكنه قابل بكائي بابتسامة عريضة ثم سألني : لماذا تبكي ؟ اتخاف علي من الموت إنها منيتي المفضلة ، إنه الأمل الأخير ، الطبيب الذي يتفوق دائماً على أمهر الأطباء . . وواصل ابتسامته المنكسرة ، ولاحظت أن قدراً كبيراً من الشجاعة ظل يشع من ملامح وجهه الغائر . .

ومضيت مع الصديق نتجاذب أطراف الحديث ونتذكر أمل دنقل القديم ، سنوات العذاب الطويل ، أيام التسكع والجوع ، خلال الفترة التي اشتدت فيها وطأة القهر والظلم والفقر والمطاردة على أمل دنقل قبل أن تشتد عليه وطأة المرض القاتل . قال لي الصديق الذي لن أذكر اسمه بسبب الفقرة التالية من الحديث : لقد كنت في

القاهرة منذ سبع سنوات ، رأيت خلالها أمل دنقل أكثر من مرة وذات يوم رأيته كالعادة يذرع الطرقات بحثاً عن صديق يدفع له ثمن الغداء . وعندما رآني توجه نحوي قائلاً : نصف جنيه ، نصف جنيه فقط ثمن الغداء .

وعندما كنت معه في المستشفى منذ أسابيع مددت يدي إلى جيبي وأخرجت خمسمائة جنيه وقدمتها إليه في خجل ، ضحك أمل دنقل من تصرفي غير المهذب ، وقال لي : اطو أوراقك يا أخي فلم أعد بحاجة إليها ، كنت منذ سنوات كما تذكر بحاجة إلى ورقة واحدة منها ، وكانت ورقة واحدة تكفي لتسعدني يوماً أو أكثر أما الآن فلا قيمة لها عندي ، إن ما في العالم من هذه الأوراق لا تهز شعرة في جفني ، ولا يخفف الم دقيقة واحدة من عذابي الطويل المرير !!

أطياف ذكرى :

كان قد نشر عدداً غير قليل من القصائد حين التقيت به لأول مرة ، لكنه لم يكن قد أصبح مشهوراً ،

وكـان وثيق الصلة بشـاعـرين من أكبـر شعـراء القصيـدة الجـديـدة في مصـر همـا : صـلاح عبـدالصبـور وأحمـد عبدالمعطي حجازي ، وكانت علاقته بالأخير وتأثره بشعره أوضح وأصرح . وفي الأعوام الأولى التي تعرفت فيها على أمل ابتداء من عـام ١٩٦٦ كان أكـثر التصاقـاً بحجازي وأكـثر تأثـراً وتقليداً لـطريقته في الحيـاة قبل أن يصـير له أسلوبـه الخاص وحيـاته المـطلقـة التي زادت الـظروف في تعقيدها وزادت في الوقت ذاته من عفويتها .

وكانت هزيمة حزيران ٦٧ بداية الانعطافة الحقيقية نحو الشهرة ونحو الشعر ، وليس في هذا ما يمس بعبقرية الشاعر من قريب فقد كـرست المآسي العـظيمة الشعـراء العظام ، ومأسـاة فلسطين هي التي خلقت وكـرست أهم شعرائنا أمثال : محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما ، وفي الأيـام الأولى للنكسة أو الهـزيمة كـان أمل دنقـل يقرأ قصيدة (زرقاء) قبـل النشر وهي قصيـدة جريئـة أكدت خطواته على طريق الشعر ، وكانت عنـواناً لأهم دواوينـه (البكاء بين يدي زرقاء اليمـامة) كنت يـومئذ بجـواره ، حد تحذيره عن مجرد التلفظ بها حتى لا يناله الأذى ، لكنه لم يتردد وسارع في نشرها وجعلها بعد ذلك عنواناً لديوانه الأول ، كما قرأها في أكثر من منتدى شعري وفي أكثر من ملتقى أخـوي . . وفي ماتبقى من عـام ٦٧ وإلى أوائـل السبعينات كانت القصيدة على كـل لسان ، فليس قبلهـا قصيـدة وليس بعدهـا قصيدة نـالت ما نـالته من الشهـرة والذيوع ، فقد ارتبطت بالجرح القـومي الأكبر ، وكـانت تعبيراً عميقاً وصادقاً عن موقف عنترة (الشعب العـربي) الذي تركـه الحكام في صحـراء الاهمال يسـوق النوق إلى المرعى ويحتلب الأغنام ويجتر أحلام الخصيـان حتى إذا ما اشتدت الحرب وأعلنت المعركة ذهبوا إليه يستصرخون فيه روح الحميـة ويدعـونه إلى الـدفاع عن قصـورهم المضاءة بالمسرات وألوان الترف .

كـانت القصيدة شجـاعة وجـارحة ، وقـد وضعت الأدب الحزيراني من أول يوم في موضعه الصحيح قبل أن

يحاول بعض الشعراء والكتاب أن يجعلوا منه شيئاً آخر ، فقد حاول أمل دنقل ونجح في أن يجعل منه أدب مقاومة ، مقاومة للأخطاء النابعة من الداخل ، ومقاومة للعدوان القادم من الخارج ، أدب مجالدة وتحد لا أدب استسلام ولطم خدود وبكاء عاجز على اللبن المراق في صيف التعاسة والانكسار !! وكان لا بد لعنترة (الشعب العربي) أن يثبت بالدليل القاطع غيابه التام عن المعركة التي دارت بين السلطة التي لا يشك في وطنيتها وفي غرورها وبين العدو الذي لا يشك في خطره وغطرسته وتنامي أطماعه :

أيتها النبية المقدسة . .
لا تسكتي . . فقد سكت سنة فسنة . .
لكي أنال فضلة الأمان
قيل لي « اخرس . . »
فخرست . . وعميت . . وائتممت بالخصيان
ظللت في عبيد (عبس) أحرس القطعان
اجتز صوفها . .

أرد نوقها . .
أنام في حظائر النسيان
طعامي : الكسرة . . والماء . . وبعض التمرات اليابسة
وها أنا في ساعة الطعان . .
ساعة أن تخاذل الكماة . . والرماة . . والفرسان .
دعيت للميدان
أنا الذي ما ذقت لحم الضان . .
أنا الذي لا حول لي أو شان . .
أنا الذي اقصيت عن مجالس الفتيان ،
أدعى إلى الموت . . ولم أدع إلى المجالسة . .
تكلمي أيتها النبية المقدسة . .
تكلمي . . تكلمي . .
فها أنا على التراب سائل دمي
وهو ظمئ . . يطلب المزيدا . .
أسائل الصمت الذي يخنقني .
« ما للجمال مشيها وئيدا . . ؟! »

أجندلاً يحملن أم حديدا . . ؟!

(ديوان البكاء بين يدي زرقاء اليمامة ص ٢٨ دار العودة) .

ولم يقف الشاعر عند حدود هذه الشكوى ولا عند حدود هذه التساؤلات الفاضحة لما حدث في صبيحة الخامس من يونيو ، وهو لا يكتفي باستدعاء زرقاء اليمامة ولكنه في قصيدة أخرى كتبها في الذكرى الأولى لمناخ الهزيمة يستدعي المتنبي ويجري بينه وبين كافور حواراً ساخراً حول مصير ـ خولة ـ الفتاة العربية التي اختطفها الرومان من ـ أريحا ـ بعذ أن ذبحوا شقيقها :

« سألني كافور عن حزني
فقلت إنها تعيش الآن في بيزنطة
شريدة . . كالقطة
تصيح (كافوراه . . كافوراه)
فصاح في غلامه أن يشتري جارية رومية

تجلد كي تصيح (واروماه . . واروماه . .)
. . لكي يكون العين بالعين
والسن بالسن . . ! »

ويصل الانفعال مداه ، كما تصل الشجاعة أيضاً مداها في محاولته الجريئة فضح القيادة العسكرية المهلهلة ، وقد استخدم عنصر التضمين الشعري كأقوى وأجود ما يكون الاستخدام وأصبحت الأبيات المضمنة أكثر التحاماً وتداخلاً في بناء القصيدة وفي إعطائها الدلالة الرمزية التأريخية وليس كما فعل ويفعل بعض شعراء القصيدة الجديدة الذين يقومون بما يشبه عملية (اللصق واللزق) حيث يظل أسلوب التضمين سطحياً وناشزاً عن السياق الفني والنفسي ، وقد رأينا في المثال الأول كيف نجح في دمج البيت الشهير (ما للجمال مشيها وئيدا) ولنر الآن كيف ومتى ولماذا ، جاء بأبيات المتنبي في آخر قصيدته الغاضبة « من مذكرات المتنبي في مصر » وهي في رأيي من معالم شعر ما بعد حزيران :

تسألني جاريتي ان اكتري للبيت حراسا
فقد طغى اللصوص في مصر . . بلا رادع
فقلت : هذا سيفي القاطع
ضعيه خلف الباب . . متراسا
(ما حاجتي للسيف مشهورا
ما دمت قد جاورت كافورا ؟)
« عيد بأية حال عدت يا عيد ؟
بما مضى ؟ أم لأرضي فيك تهويد ؟
(نامت نواطير مصر) عن عساكرها
وحاربت بدلا منها الأناشيذ
ناديت يا نيل هل تجري المياه دما
لكي تفيض ، ويصحو الأهل إن نودوا ؟
« عيد بأية حال عدت يا عيد ؟

لقد حقق أمل دنقل بقصائده الجريئة عن النكسة وآثارها شهرة واسعة ، وتحقق له من النجاح في عام واحد

ما لم يتحقق له في سبع سنوات هي عمر كل محاولاته الشعرية السابقة . كان الطريق إلى الشعر قبل ذلك طويلاً وشاقاً أما الآن فقد صار أقصر مما كان يظن وإن كان ما يزال أشق مما كان يتوقع وذلك بسبب الاصرار على الجنوح إلى كتابة الشعر اللاذع ، وبسبب اختياره الطريق النبيل والصعب ، طريق اشعال الحرائق في وجدان الجماهير النائمة المهزومة ، تلك الجماهير التي كانوا وما يزالون يتحدثون عنها في القصائد وفي الخطابات وفي الصحف كما يتحدثون عن فئران التجارب وأرانب المعامل ولكن دون إحساس حقيقي بما تعاني ولعل أهم ميزة يتميز بها شاعر كبير كأمل دنقل أنه لم يكن يخاف من شيء أو يخاف على شيء وقد ساعدته عفويته المنطلقة وطبيعته غير المنضبطة على الاحتفاظ بنقائه وتمرده . .

أطياف حديث :

بعد ثلاثة أعوام تقريباً من وقوع الهزيمة التي مزقت

حياة العرب المعاصرين وشوهت معالم الأيام العربية ، رحل المناضل جمال عبدالناصر ، وكانت وفاته أو بالأصح كان غيابه عن الساحة العربية في مثل تلك الظروف الفاجعة هزيمة أخرى ، وبعد رحيل عبدالناصر بأربعين يوماً التقى الشعراء العرب من مختلف الأقطار العربية لتأبين الزعيم الراحل وفي الاستراحة الجانبية للقاعة الكبرى للاتحاد الاشتراكي ، كان عدد من الشعراء والنقاد يقطعون الوقت في انتظار لحظة افتتاح الاحتفال التأبيني ، وكنت قد أخذت لي مكاناً بينهم ، وكان أمل دنقل قد اختار مكاناً قصياً في الاستراحة وحيداً وبعيداً عن الآخرين ، كان يبدو متوتراً ، يكثر من التدخين وكأنه يلتهم السجائر التهاماً وبين حين وآخر ينظر إلى السقف كأنما يحاول اختراقه بنظراته الحادة . قال أحد الحاضرين لعله يعاني من حالة شعرية وربما كان متوحداً لأن قصيدة الرثاء لم تكتمل بعد ، وقال آخر ربما أن أحد الحاضرين قد حاول الاساءة إليه فابتعد مؤقتاً ليبدد شحنة الغضب ثم يعود إلينا ليملأ المكان بملاحظاته وضحكاته (وقفشاته)

المختلفة ، وانطلق صوت شاعر شاب يقول : إن أمل يعاني من حالة حزن حقيقي لغياب عبدالناصر ، فقد كان الرجل بالرغم من كل شيء الحارس الأمين للكلمة والشعرية منها خاصة . واستقر الحديث بعد أن جال وتنقل في ميادين شتى حول عبدالناصر وكيف كان يتعامل مع الأدباء بطريقة تختلف تماماً عن تعامله مع السياسيين وينحسب ذلك التعامل على الأدباء الملتزمين أو المتسيسين . وقد نال الشعراء بخاصة طوال عهده حظوة كبيرة وشملهم برعاية خاصة ، فهو لا يسمح للأجهزة بمصادرة أعمالهم الأدبية أو يمنعهم عن النشر والسفر ، ولم يكن يسمح للصحافة في مصر أن تتناول بالاساءة ايا من شعراء العرب الذين يختلفون مع النظام الناصري . حدث ذلك مع سليمان العيسى ، ومع الجواهري ، ومع البياتي ، ومع الفيتوري ، ونزار قباني ، وقد اشتهر لكل هؤلاء قصيدة أو أكثر في مهاجمة شخص عبدالناصر بالذات وقد ظلت القاهرة مفتوحة لهم بعد مواقفهم ، كما

كانت قبل ذلك ، وقد ظهر في وقت متأخر من حياة عبدالناصر بعض المتشاعرين الذين حاولوا من منطلق المنافسة غير المتكافئة الاساءة والتشويه المتعمد لأدوار ومواقف بعض الشعراء خارج مصر مما اضطر عبدالناصر نفسه إلى أن يتدخل ويضع حداً لهذه الظاهرة المعادية للشعر والشعراء .

كان عبدالناصر - إذن - بحسه الثوري يدرك أن الشاعر الحقيقي في مصر أو في بقية الأقطار العربية يشكل طاقة حدس واكتشاف خلاقه فالشاعر ليس كزرقاء اليمامة ترى الأشياء عن بعد ولكنه يرى الأشياء والأحداث بعين بصيرته الشعرية ويتنبأ بها قبل وقوعها وقد نشر الشعراء في مصر قصائد تنبأت بالنكسة ونبهت إلى ما حدث قبل أن يحدث ، ونشرت الأهرام في ماأتذكر قصيدة للشاعر محمد إبراهيم أبو سنة قبل النكسة بأسابيع وكان عنوان القصيدة (نحن غزاة مدينتنا) وكأنما كانت تقرأ ما سوف يحدث في صحائف مكتوبة من قبل .

يكون . . لا يدرون

أن كل واحد من الماشين

فيه . . صلاح الدين .

كان الليل داكناً مكتئباً حين رجعنا من حفل التأبين ، وكانت الأضواء الصفراء في الميادين والطرقات قد زادت اصفراراً وشحوباً . وكان زميلنا الذي يقود سيارته والدموع تملأ عينيه يردد القسم الذي أطلقه أمل دنقل ، وكان مثله يحلم بعودة سيناء وبسقوط النجمة السداسية من فوق حائط المبكى إلى التراب . . .

« امل دنقل وانشودة البساطة في الشعر »

كان وصف (الشاعر الصعلوك) يتردد كثيراً في الأوساط الأدبية المصرية كلما ذكر امل دنقل وكثيراً ما قيل هذا الوصف بحضوره فيضحك ويعتبر هذا الوصف أو اللقب إذا جاز أنه كذلك ، يعتبره تحية كريمة لشاعر معاصر ينأى بنفسه عن الاقتداء بالشعراء المدجنين شعراء الحواضر والصالونات المعطرة والبدلات الأنيقة والسيارات الفارهة . كان واحداً من موكب جليل للشعراء الصعاليك المعاصرين الذين يرغبون عن عَالم المغريات المختلفةوأن يظلوا خفافاً نظافاً لا تأسرهم زينة الحياة الدنيا ولا تشدهم إلا بمقدار ما تمكنهم معطياتها الصغيرة من الكتابة والابداع .

ومن حسن حظ الشعر العربي في مصر وفي بقية الأقطار العربية أن الشعراء الحقيقيين لم يرتفع بهم شعرهم أو بالأصح لم ينخفض بهم إلى مستوى البذخ المادي والترف الحياتي ، وقد أثبت الشعر على مر العصور بما في ذلك العصر الحديث أنه كفيل بأن لا يلقن اسراره العميقة ولا يضع ناره المقدسة إلا في النفوس الزاهدة والقلوب البريئة من التطلعات المريضة ، وقد ظلت تلك هي أبرز سمات الشعراء الحقيقيين جيلاً بعد جيل فلم تطوح بهم الرغبات الخاصة وتدفع بهم بعيداً إلى سراديب مضاءة تصرفهم عن الشعر وتصرفهم عن الناس ، وإن كان قد حدث غير ذلك فهو استثناء عن القاعدة والاستثناء كما يقول المناطقة لا يعول عليه ولا يؤخذ به .

وقد كانت الصورة الشائعة عن امل دنقل هي صورة الشاعر الصعلوك ، لكنه كان صورة فريدة في صعلكته وفي محافظته على تقاليد الصعلكة الشعرية بثوبها المعاصر ، وقد سمعت من يحاول أن يقارن بينه وبين الشاعر المرحوم

عبدالحميد الديب الذي هزت أخبار بؤسه الثلاثينات والأربعينات وحفلت المقاهي والمنتديات في تلك الفترة بأحاديث بؤسه وبمطارحاته واهاجيه المتنوعة ، إلا أن الفارق بين الشاعرين كبير والفارق بين الصعلكتين أكبر ، صحيح أن البؤس الذي عانى منه الشاعران كلاهما متشابه ويكاد يكون واحداً إلا أن بؤس الأول ذاتي وناتج عن نهم شديد إلى الحياة في حين أن بؤس الآخر عام وناتج عن زهد في الحياة ، ولو أن الشاعر الأول وجد الأبواب الواسعة إلى النعيم كما وجدها الثاني لما تردد عَن دخولها غير هياب ولا متحرج وهذا الفارق الأخير يكفي لمعرفة ما بين الشاعرين من تباين واختلاف وفضلاً عن هذا وذاك فإن امل دنقل شاعر يمثل مرحلة اجتماعية مختلفة كل الاختلاف عن المرحلة التي ظهر فيها عبدالحميد الديب والهموم التي حاول التعبير عنها تختلف كذلك عن هموم المراحل السابقة كلها .

لقد انفق امل دنقل ساعات كثيرة من حياته في

المقاهي - كما فعل عبدالحميد الديب تماما لكن أحاديث المقاهي اختلفت والقصد من ارتياد المقهى اختلف أيضاً ، القضية التي تؤرق امل دنقل ما كانت لتخطر على ذهن عبدالحميد الديب ، وإذا كانت قد خطرت على ذهنه فبقدر كبير من الغموض ، وإذا كنت قد أشرت في ما سبق من حديث الذكريات فإن شريطاً طويلاً حافلاً بالذكريات التي تتواكب من قاع الأيام الراحلة ، ولعل أكثرها بروزاً ووضوحاً صورة امل دنقل في بيته أو بالأصح في احدى الشقق الكثيرة التي استأجرها الواحدة بعد الأخرى لتكون مقراً للنوم . كانت واحدة منها شقة أرضية من غرفتين في ميدان العجوزة استأجرها لفترة وعاش فيها مع زميله الصديق الشاعر حسن توفيق ، وقد زرتها في هذه الشقة عشرات المرات رافقني في معظم تلك الزيارات الصديق الشاعر محمد الشرفي اثناء عمله في سفارتنا بالقاهرة ، وقد اعتدنا أن نذهب إلى الشقة قبيل الغروب ، وفي كل مرة كنا نرى امل دنقل اما نائماً أو مشغولاً باعداد طعام الغداء

مع زميله ، وكنا نقضي فترة انتظارهما للطعام في حديث عن الشعر والأدب وفي قراءة بعض القصائد وكان الغداء متواضعاً في كل يوم ولا يزيد عن البطاطس وأرغفة الخبز وبعض الأوراق الخضراء . وكثيراً ما امضينا الساعات الطويلة بعد أن يتناول الشاعران البائسان غداءهما أو عشاءهما في أحاديث أدبية ، وفي معظم الأحيان كنا نتوجه إلى دار الأدباء أو إلى منزل الصديق محمد الشرفي لقضاء سهرة أدبية لا تقتصر على امل وزميله ، إذ غالباً ما ينضم إليها صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي وغيرهما من الأدباء والشعراء الكبار الذين يضيئون الليالي بأحاديث الفكر والأدب وبروائع الشعر ، ولعل الفترة التي قضاها امل دنقل في شقة ميدان العجوزة اسوأ فترات حياته وأحفلها بالمتاعب وانتفاء الاستقرار وقد وصل الحال به وبزميله الشاعر حسن توفيق إلى أن يتبادلا ارتداء قميص واحد في الحفلات والسهرات ولعدة أشهر ، فإذا خرج احدهما انتظر الآخر في المنزل حتى يعود زميله ، والغريب

انه بالرغم من ذلك الحال وربما بسببه فقد كانت تلك السنوات هي أخطر وأهم سنوات الانتاج الشعري وأهم سنوات المواجهة الحادة بالكلمة ، وفي هذه الفترة كتب أمل أهم قصائده وأجملها واكتسب شهرة فائقة قفزت به من بين شعراء الشباب إلى مستوى صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي إن لم تكن قد تجاوزت به هذين الشاعرين الكبيرين . وكانت قصيدته (أغنية الكعكة الحجرية) حدثاً في تأريخ الشعر السياسي في مصر وفي الشعر العربي بأجمعه ، وقد كتبها وسط مظاهرات الطلاب ومصادماتهم الشهيرة مع شرطة النظام في عام ١٩٧٢ م ومنها هذا المقطع الذي يخاطب الشاعر فيه مصر التي ارتعشت يومئذ من خلال مظاهرات الطلاب وتململ الشعب :

اذكريني ! !
فقد لوثتني العناوين
في الصحف الخائنة
لونتني لأني منذ الهزيمةلا لون لي

غير لون الضياع
قبلها كنت اقرأ في صفحة الرمل
والرمل أصبح كالعملة الصعبة
الرمل أصبح أبسطه تحت اقدام جيش الدفاع !
فاذكريني، كما تذكرين المهرب والمطرب العاطفي . .
وكاب العقيد ... وزينة رأس السنة
اذكريني إذا نسيتني شهود العيان
ومضبطة البرلمان
وقائمة التهم المعلنة
الوداع !
الوداع !

(مِن ديوان العهد الآتي) .

أنشودة البساطة :

كان أمل دنقل شاعر البساطة في زمن التعقيد والغموض ، وأول ما يلفت الانتباه في قصائده البساطة الحادة المصقولة التي تتحول إلى انشودة مفرطة التواضع « وأنشودة البساطة » تعبير حديث اطلقه بين شباب الكتاب والشعراء الكاتب الفنان يحيى حقي ، والبساطة عند ذلك الشيخ الوقور - كما فهمها جيل أمل دنقل - لا تعني التمرد على القواعد اللغوية اوالخروج على الأسس الفنية للكتابة ، ولا تعني الرقة والتبسيط ، إنما تعني تلقائية التناول أو عفوية التعبير ، والابتعاد عن خشونة اللفظ إلى خشونة المعنى ، وتحويل العمل الأدبي من شعر لا يفهم محتواه سوى نفر قليل من الكتاب . . إلى أنشودة جماعية والى لغة فن ووجدان . ومن السهل جداً أن يتتبع المتلقي فضلاً عن الدارس تجربة أمل دنقل الشعرية وأن يتبين ملامح القراءة في هذه التجربة التي تختلف عن تجربة الآخرين من زملائه ومن الشعراء الذين سبقوه وقد ظلت تجربته متميزة منذ البداية الصحيحة إلى أن توقفت مع الوفاة . وكانت بساطته في التناول تجعله يرى أن الفرار من المباشرة لا يعني الفرار من المحيط المباشر للواقع ، ولا تعني الفرار من مواجهة العذاب الانساني والخراب والدمار والتشويه ، وهذا الموقف جعله لا يقيم كبير وزن لما يسمى بالألفاظ

الشعرية ، أو بالمعاني المعقدة ، وهو في نثره القليل الذي
تضمنته مقابلاته المنشورة في الصحف والمجلات لا يكف
عن الهجوم السافر الحاد على كثير من شعراء القصيدة
« المتجاوزة » وهو يرى أن معظم التجاوز يقف عند دائرة
اللغة وحدها وعند الشكل وحده وهو يعتقد أن ذلك
الصنع لا يزيد عن كونه نوعاً من الهروب عن مواجهة
الواقع « ولأن فقدان الثقة عند الشاعر في تغيير هذا الواقع
قد أدى به إلى أنواع من استجلاب وسائل فنية في ظل
حضارة مختلفة ومحاولة فرضها على المجتمع الثقافي -
العربي، ومن هنا تحول الشعر الحديث إلى شعر مثقفين ،
في حين أن وظيفته الأساسية هي في ارتباطه بالناس . وقد
كان انتصار الشعر الجديد منذ البداية راجعاً إلى ارتباطه
بالناس ، وتجاوبهم بالتالي معه ، وتخليهم عن الشكل
القديم . . وما يؤدي إليه هذا التجاوز الحديث عن
المطلقات . . ومن هنا فإن هذا التجاوز للواقع يحتاج إلى
تجاوز للطرائق الفنية التي يتم بها التعبير عن هذا الواقع ،
واستحداث طرائق بديلة واستجلاب لمذاهب فنية ، أو

لجوء إلى الايهام بمحاولة تغيير الواقع أو الايهام بالثورة عن
طريق ثورة شكلية فقط . . . الشعر لا يلقن اسراره
العميقة ولا يضع ناره المقدسة إلا في النفوس الواجدة وفي
القلوب البريئة من التطلعات المريضة » أي تكون الثورة
على مستوى الشكل فقط .
(ندوة مجلة فصول عن قضايا الشعر المعاصر المجلد
الأول العدد الرابع يوليو ١٩٨١ م) .

ومهما يكن نصيب وجهة النظر هذه من الخطأ أو
الصواب فإن وراءها موقف شاعر كبير يدرك أنه خارج من
احزان أمة كبيرة أسيرة اخطبوط خطير هائل من المعاناة
والمشاكل ولا بد من أن تحس بالخطر الذي يتهددها ،
ومهمة الشاعر بالذات أن يوصل هذا الاحساس إلى وعي
الأمة وأن لا تتحول قصائده إلى مفردات قاموسية مجردة عن
أي معنى أو إلى معان مطلقة تسعى إلى تخدير الوعي واماتة
الحواس بدلاً من ايقاظها ، وفي مرحلة الهوان والانحطاط
كالمرحلة التي نعيشها الآن لا بد أن يتخلى الشاعر عن

الوقوف في دائرة الأحلام الذاتية وقبل أن يحاول التحرر من القوالب الميتة أو التي يراها كذلك عليه أن يتجنب الوقوع في ما هو أخطر من هذه القوالب كالشكلية وتزييف الواقع ، تلك هي ببساطة أمل دنقل التي جعلت من شعره صوتاً عميقاً وبسيطاً ، ومن المهم قبل ذلك وبعد ذلك أن نعلم أنه هو نفسه قد كان انشودة من البساطة والتواضع .

تمجيد التمرد في زمن الخنوع :

قضية الاساءة إلى الشعراء وتكفيرهم ومحاولة الانتقام من كبارهم تحت مختلف الادعاءات ، قضية شغلت الجانب الأكبر من تاريخ الشعر العربي ، ولم يسلم في الماضي من تهمة الزندقة والالحاد سوى صغار الشعراء ومن لا وزن لهم في الحياة والشعر على السواء . وقد شغلت هذه القضية عدداً من الباحثين ، وقد تلقيت منذ وقت قصير رسالة من باحث صديق تشغله القضية ويعد عنها رسالة دكتوراه ، يعكف عليها منذ خمسة أعوام . وقد لخص الهدف الذي يسعى إليه من دراسته بمحاولة التعرف

على الأسباب الكامنة وراء محنة الشعراء ولماذا الشعرا بالذات ، وقد رأى من خلال البحث الموضوعي القائ على النزاهة والصراحة ـ وهو يكتب الشعر ـ رأى أن كثير من التهم التي توجهت نحو الشعراء قد كانت موجهة في الوقت ذاته نحو الفلاسفة ورجال الدين وأصحاب المذاهب والمتكلمين ولكنها كانت مع الشعراء ـ عبر العصور ـ أكثر حدة فلم تذبح التهم الكبيرة فيلسوفاً وا قادت إلى قتل رجل دين لكنها قتلت كبار الشعراء ، لماذا هذا هو السؤال الذي يبحث صديقي في رسالته للدكتور عن الاجابة عليه وهو يتلمسه عند عدد من الشعرا الاحياء وعند بعض الأدباء الذين تؤرقهم المحنة التي انسحبت إلى عصرنا من سلبيات العصور القديمة .

تذكرت محنة الشعراء هذه الأيام وأنا أعيش ذكريات محنة صديقي الشاعر أمل دنقل فقد عانى بالاضافة إلى محـ الفقر والتشرد وإلى محنة القمع والارهاب محنة التكفير نعم محنة التكفير ، وكانت قصيدته « كلمات سبارتاكوس

الأخيرة » واحدة من القصائد التي وضعها « زعماء محاكم التفتيش » على مشرحة التكفير ، والقصيدة تدعو إلى التمرد ضد الطغيان وتمجد ذور العبد سبارتاكوس الذي امتشق السيف في وجه العبودية وفي وجه روما العابثة بانسانية الانسان ومطلع القصيدة وهو الأكثر اثارة يقول :

المجد للشيطان . . معبود الرياح
من قال (لا) في وجه من قالوا (نعم)
من علم الانسان تمزيق العدم
من قال (لا) . . فلم يمت ،
وظل روحاً ابدية الألم !

المجد هنا ، ليس للشيطان (ابليس) ولكنه للشيطان (سبارتاكوس) ذلك العبد الشجاع الذي اشتاقت نفسه للحرية فقال (لا) في وجه (القيصر) وكانت النتيجة أن اسمه ظل على كل لسان وظلت روحه الأبدية الألم تزرع الشجاعة في نفوس العبيد وتدفع بهم إلى الصفوف الأولى من المواجهة ، وقد فهم صغار العقول في

محاكم التفتيش المعاصرة أن الشاعر يمجد ابليس وأنه بذلك قد كفر ، وأن دمه قد صار حلالاً . وقد حاول صغار العقول هؤلاء أن يصلوا بصرخاتهم الحاقدة إلى (أهل الحل والعقد) إلا أن الصرخات ضاعت في أرض مصر الواسعة الأرجاء ، وظلت تتردد همساً في دهاليز الكراهية إلى أن رحل الشاعر عن عالم الحقد والطغيان وأخذه الله إلى جواره الرحيم الكريم .

لقد كتب الشاعر قصيدته في الاسكندرية وفي شارع الاسكندر الأكبر وهو يتذكر الجموع الفقيرة الغفيرة وهي تسير في الشوارع محنية الظهور مثقلة الأعناق كقطيع الأغنام ، لا صوت يرتفع بكلمة (لا) الكلمة السائدة والشائعة هي (نعم) مصحوبة بالنسبة المعروفة(٩٩,٩٩
تذكر الشاعر كل ذلك فكتب قصيدته التي حاول فيها أن يعلم الجماهير العربية المضطهدة أن تقول (لا) حتى وإن كانت العاقبة لا تختلف كثيراً عن عاقبة ذلك الثائر المعلق في مشنقة على مدخل المدينة الظالمة :

معلق أنا على مشانق الصباح
وجبهتي ـ بالموت ـ محْنية
لأنني لم أحنها . . حية
. . . .
يا اخوتي الذين يعبرون في الميدان مطرقين
منحدرين في نهاية المساء
في شارع الاسكندر الأكبر :
لا تخجلوا . . ولترفعوا عيونكم إلي
لأنكم معلقون جانبي . . على مشانق القيصر . .
فلترفعوا عيونكم إلي
لربما . . إذا التقت عيونكم بالموت في عيني
يبتسم الفناء داخلي . .
لأنكم رفعتم رأسكم مرة .

وبعد أن طهرت آلام المرض العنيف روح الشاعر الكبير وجسده الهزيل ، وعندما رحل إلى جوار ربه الغفور الرحيم لا أشك في أنه قد غفر لخصومه من أنصار محاكم

فتيش ودعاة التكفير ولكن هل اعتذر له هؤلاء هل اولوا أن يستغفروا لذنبهم الكبير ، ذنب اتهام المبدعين نب قتل المواهب ؟ كان الشاعر متهماً منذ كان متنبي بيلة وصوت احزانها ، ورجال الدين يتهمونه بالتجديف لحاد . . ورجال السلطة يتهمونه بالخروج على النظام طيم الاستقرار الموهوم ومن سوء حظ الشاعر الحقيقي العصر الحديث أن التهم القديمة لم تتغير ولم تتطور برات العصر وتطوراته . . في مواجهة جدار اليأس حباط

آه . . ما أقسى الجدار
عندما ينهض في وجه الشروق
ربما ننفق كل العمر . . كي نثقب ثغره
ليمر النور للأجيال مره !
. . . .
ربما لو لم يكن هذا الجدار . .
ما عرفنا قيمة الضوء الطليق . . !

وضع امل دنقل هذا المقطع الصغير افتتاحية لديوانه الأول (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) ولاختيار هذا المقطع وللحرص على أن يتصدر فاتحة الديوان (البداية) لذلك كله مغزى خطير يلخص بمرارة خيبة الأمل والشعور بالعجز ازاء مختلف اشكال الاحباط في الواقع العربي المعاصر .

وصورة هذا الجدار الذي ينهض في وجه الشروق الخاص وفي وجه الشروق العام ليسد النور ويميع كل ومضة امل . . صورة هذا الجدار تعكس منذ البداية الشعور البائس المحبط ، ولكنها في الوقت ذاته تكشف عن استعداد شجاع وجريء لمواجهة هذا الجدار ومحاولة التغلب عليه ، وكأني بالشاعر في بداية حياته يشعر بوعورة الطريق واتساع المسافة لكن تفاؤل الشباب جعله وهو يقترب من الجدار يشعر بالزهو لأن الجدار يعطي لحياته قيمة ويعطيها معنى ، فأي معنى لحياة لا معاناة فيها ولا مكابدة ، حتى

(سيزيف) ذلك البطل الأسطوري المحكوم عليه بحمل الصخرة إلى القمة لكي تعود إلى القاع ثم يعود هو إلى حملها من جديد إلى القمة في رحلة عذاب لا تنتهي بين القاع والقمة (سيزيف) هذا أي معنى لحياته التافهة المكروره إن خلت من هذا العذاب المضني الرتيب . وأي عذاب للانسان بدون هذا الجدار الذي يحاول بجهده الانساني أن يفتح عليه ثغرة للنور ، نور المعرفة والتغيير إلى الأفضل والأجمل والأنقى . . وإذا كان الشاعر الكبير امل دنقل قد ظل يحفر في الجدار ورحل قبل أن يتدفق شلاله للنور المنتظر فإن كلماته ستظل تواصل الحفر والطرق على وجه الجدار الواقف في وجه الشروق إلى أن ينهدم الجدار ويتدفق انهاراً من الاشواء ، فمن غير المعقول أن تظل الأرض العربية تنزف دماً . وان يظل ابناؤها هكذا حيارى يفترسهم الارهاب وتتقاذفهم الهموم إلى نهاية العالم .

أخيراً أي شعور حزين يعت
بالكلمات شاعراً عظيماً عاش
وللوطن . وأي احساس فاجع
نكتب بالكلمات كل يوم سوى رثا
ابناء هذا الوطن و لأروع ما
ونقاء . . . .

الدكتور عبا

مقتل القمر

الاهداء

إلى الاسكندرية
سنوات الصبا !

براءة

أحسُّ حيال عينيك
بشيءٍ داخلي يبكى
أحس خطيئةَ الماضى تعرَّت بين كفيك
وعنقوداً من التفاح فى عينين خضراوين
أأنسى رحلة الآثام فى عينين فردوسين ؟
وحتى أين ؟
تعذّبنى خطيئاتى .. بعيداً عن مواعيدك
وتحرقنى اشتهاءاتى قريباً من عناقيدك !
وفى صدرى
صبي أحمر الأظفار والماضى
يخطط فى تراب الروح ،
فى أنقاض أنقاضى !
وأنظر نحو عينيك

فترعشنى طهارة حب
وتغرقنى اختلاجة هدب
وألمح — من خلال الموج — وجه الرب
يؤنبنى
على نيران أنفاسى يقلبنى
وأطرق ...
والصراع المرُّ فى جوفى يعذبنى !!
... ...
أحدق فى خطوط الصيف فى شفتيك :
يهوى داخلى الحرمان
(لهيب آدمى الشوق ، مصباحان يرتعشان)
وأهرب نحو عينيك :
يطالعنى الندى والله والغفران !
وأسقط بين نهديك
لتحترق الرؤى

وأغرق فيهما بالنار والشك
نشوى رغبتى شيا
وأغمض عنك عينيا

وأسند رأسى الملفوح فى صدرك
فقد تترمدّ الأفكار فى جمرك
وأحرق جنة المأوى
... ...
فيا ذات العيون الخضرْ
دعى عينيك مغمضتين فوق السرّ
.. لأصبح حرْ !!

طفلتها

(.. مرت بخمس سنوات على الوداع وفجأة .. رأى طفلتها !)

لاتفرّى من يدى مختبئه
.. خبت النار بجوف المدفأة !
أنا ..
(لوتدرين)
من كنت له طفله
لولا زمان فجأه
كان فى كفّى ما ضيعته
فى وعود الكلمات المرجأه
كان فى جنبىّ
لم أدر به !
.. أو يدرى البحر قدر اللؤلؤة ؟

إنها عمرك عمر ضائع من شبابى
فى الدروب المخطئة
كلما قرت بعام
حسرت مهجتى عاماً
.. وأبقت صداه
ثم لم نحمل من الماضى
سوى ذكريات فى الأسى مهترئه
تعرى بالدجى
إن الدجى للذى ضل مناه ..
تكه !!

• • •

العيون الواسعات الهادئة
والشفاه الحلوة الممتلئة :
قصة طفليه
أذكرها

وهى عن سبعة عشر منبئة
إننى أعرفها
فاقتربى
فكلانا فى طريق أخطأه
ساقنى حمقى
وفى حلقى مرارة شوق
وأمان صدئه
فابسمى ياطفلتى
(منذ مضت ... وابتسامات الضحى منطفئة)
ثرثرى
(صوتك موسيقى حكت صوتها ذا النبرات المدفئة)
ــ « إحكِ لى أحجيةً »
ــ لم يبق فى جعبتى
غير الحكايا السيئة
فاسمعيها يا ابنتى مسرعةً
عبرت فيها الليالى .. مبطئة

....

« كان يا ما كان »

أنه كان فتى
لم يكن يملك إلا .. مبدأه
وفتاة ذات ثغر يشتهى قبلة الشمس
لتروى ظمأه
خفق الحب بها ؛ فاستسلمت
وسرى الحب به ؛ فاستمرأه
بينما قد صعدت مركبه
الضحى
فى قصة مبتدئة
وهو فى شرفته مرتقب
وهى فى شباكها .. متكئة
نغمٌ منقسمٌ
لا ينتهى حُلُمٌ
إلا وحلم بدأه
صعدا
سلمةً ..
سلمة ..

فى قصور الأمنيات المنشأة
لم تكن تملك إلا طهرها
لم يكن يملك إلا مبدأه

* * *

ذات يوم
كان أن شاهدها
من له أن يشترى نصف امرأة
حينما أوما لها مبتسماً
فأشاحت عنه
كالمستهزئة
اشتراها فى الدجى
صاغرة
زفت السبعة عشر .. للمئة
لم يكن شاعرها فارسها
لم يكن يملك إلا ..
التهنئة

لم يكن يملك إلا مبدأه
ليس إلا ..
كلمات مطفأة

* * *

أترى تدرين من كان الفتى ؟
فهو يدرى الآن
يدرى خطأه !
والتى بيعت وفى معصمها الوشم
فاعتاد الفؤاد الطأطأة !؟
ومن النخاس ؟
هل تدرينه ؟
وهو ملاّح تناسى مرفأه
اننى أكرهه
يكرهه ضوء مصباح نبيل أطفأه
غير أن الحقد ..
(يا طفلته)

وأنت ياحبيبى
طير على سفر

° ° °

ويرحل المطر
ويذبل الشجر
ويغمر الغبار النقوش والصور
... ...
وتهبط الأحزان
فتمحى الألوان
والقلب
والخطوط العرجاء
والأسمان
وينخر السوس القديم فى العيدان
وترحل الطيور الزرق
بلا عنوان
تسأل عن هوانا
تسأل عما كان

.. ماكان يا حبيبى
حلم ؛ وقد عبر !

° ° °

وينزل المطر
ويرحل المطر
وينزل المطر
ويرحل المطر
والقلب يا حبيبى
مازال ينتظر

قلبي .. والعيون الخضر

— ١ —

صبياً كان
شددت على يديه القوس
أعلمه الرماية
(كى يفوق بقية الأقران)
« فلما اشتدّ ساعده .. »
....
ثلاث سنين
أبارز قلبى المفتون
يجمع بيننا ليل ، ويفصلنا نهار قتال
تطل علىّ — خلف لثامه — عينان خضراوان
(كأوردةٍ تلوّن بطن ركبة عانس عجفاء)
وقبلا .. كانتا فى وجه قديسة !

° ° °

ثلاث سنين
ينازلنى ، أنازله

هاث ساخن ، وغبار
يرف على الفم المزموم ،
ثم يرين فوق العشب والأسوار
وكان الفخ قرب الباب
سقطتُ ملوَّث الرئتين والأثواب
أشاحت عنى العينان
وكنت تراب
وكان يدير لى كتفيه فى استهزاء
.. وتعرف أنت
ماذا يفعل المغلوب مثلى
حين يوليه العدو الظهر ؟
وفى كفى بقايا سهم
....

° ° °

وطفلاً كنت ، كالأطفال
ومركبة من الكلمات تحملنى لعرش الشمس
وقلدنى الهوى سيفه :
« إلى ذات العيون الخضر »
وكوكبة من الربات مصطفة
« إلى ذات العيون الخضر »

وقريتنا ـــ وراء العين ـــ توراة من الصمت
وثرثرة من الغدران
وصوت الطبل
يدق لينزع القمر القديم نقابه المعتل
وطفل شاحب ينهض
تزغرد نسوةٌ لختانه المدسوس فى جلبابه الأبيض
وفوق الجسر
غلام لاهث يعدو
ليمسك مهرة فرت وفى سيقانها يتعلق القيد
... ...
ومركبتى تشد الأفق مخروطية الدرب
« إلى ذات العيون الخضر »
تلال السحب تهرب من ورائى كومة .. كومة
وأنسام تضم عباءتى بأنامل الرحمة
ومن ضمه
إلى ضمه
تنسمنا قلاع الحب والحكمة
ولكنا على الأبواب
أطل نتوء

(كأنف قد تورم فوق وجه العازف السكير)
على العجلات مد لسانه الموبوء
تهاوت فيه مركبتى
فعد ياصاحب الكلمات
كأسياخ الحديد توهجت فى النار
تمر على عيونك أحرف الكلمات
« هوانا مات »
تهاوينا
بلغنا قمة القمة
لنهبط فى انحدار الجانب الآخر
ومن عثره الى عثرة
تلقانا تراب الأرض فى راحاته البرّة
ودارت قهوة الموتى
رأيت يديك هذا اليوم
معطرتين ، ناعمتين
ولكنى رأيت على أظافرك الدم الملتم
وفى المجرى الذى ينساب فى النهدين
مددت يدك قبيل النوم

عثرت على حطام الخنجر المسموم
والقفاز !!

يا وجهها

لشد ما أهوى أن نلتقى .. سهوا
كم كنت أفتقدكْ
يا وجهها الحلوا

° ° °

كل الذى سميته : شدوا
من قبل ما أجدكْ ؛
تمحى على شفة الصبا .. لغوا

° ° °

كن لى كما أهوى
أمطر عليّ الدفء والحلوى
ويظل تبثّ سماتك الشجوا
قلبى مرتعدكْ

° ° °

يا حبنا أعدك

الصيف فيك يعانق الصحوا
عيناك ترتخيان فى أرجوحة
والثغر مرتعش بلا مأوى
وعذابه : سلوى
إن جئت أنفض عنده الشكوى

* * *

فى الليل افتقدك
فتضىء لى قسماتك النشوى
تأتى خجول البوح مزهوا
وعلى ذراع الشوق استندك
وأحس فى وجهى لظى الأنفاس
حين يلفنى رغدك !
وأنام !
تحملنى رؤاك لنجمة قصوى
نترفق الخطوا
نحكى ، فأرشف همسك الرخوا
ويهزنى صحوى .. فافتقدك
لكن بلا جدوى
بلا جدوى !

[illegible] وجهها الحلوا
[illegible] مجدب السلوى
[illegible] لا أقوى
[illegible] الخطوا
[illegible] سندك

* * *

[illegible] وجهها الحلوا
[illegible] أتفقدك
[illegible] أتفقدك

مقتل القمر !

.. وتناقلوا النبأ الأليم على بريد الشمس
فى كل المدينة :
« قتل القمر » !
شهدوه مصلوباً تدلى رأسه فوق الشجر !
نهب اللصوص قلادة الماس الثمينة
من صدره !
تركوه فى الأعواد ،
كالأسطورة السوداء فى عينى ضرير
ويقول جارى :
— « كان قديساً ، لماذا يقتلونه ؟ »
وتقول جارتنا الصبية :
— « كان يعجبه غنائى فى المساء
وكان يهدينى قوارير العطور
فبأى ذنب يقتلونه ؟
هل شاهدوه عند نافذتى — قبيل الفجر — يصغى للغناء !؟ »
....

[illegible] من كل العيون
[illegible] — أطفال القمر
[illegible] —
[illegible] —
[illegible] الناس .. مات !
[illegible] ،
[illegible] الأيدى التى غدرت به
[illegible] يستمع لى ،
— [illegible] مات !

° ° °

[illegible]
[illegible] جفنيه على عينيه ..
[illegible] يرى من فارقوه !
[illegible] من باب المدينة
[illegible] :

يا أبناء قريتنا أبوكم مات
قد قتله أبناء المدينة
ذرفوا عليه دموع إخوة يوسف
وتفرّقوا

تركوه فوق شوارع الأسفلت والدم والضغينة
يا اخوتى : هذا أبوكم مات !
ــ ماذا ؟ لا .. أبونا لا يموت
بالأمس طول الليل كان هنا
يقص لنا حكايته الحزينة !
ــ يا اخوتى بيدىّ هاتين احتضنته
أسبلت جفنيه على عينيه حتى تدفنوه !
قالوا : كفاك ، اصمت
فانك لست تدرى ما تقول
قلت : الحقيقة ما أقول
قالوا : انتظر
لم تبق إلا بضع ساعات ..
ويأتى !

* * *

حط المساء
وأطل من فوق القمر
متألق البسمات ، ماسىّ النظر
ــ يا اخوتى هذا أبوكم ما يزال هنا
فمن هو ذلك الملقى علىّ أرض المدينة ؟

قالوا : غريب
ظنه الناس القمر
قتلوه ، ثم بكوا عليه
ورددوا « قتل القمر »
لكن أبونا لايموت
أبداً أبونا لا يموت !

شيء يحترق

شيء فى قلبى يحترقُ
إذ يمضي الوقت .. فنفترقُ
ونمد الأيدى
يجمعها حب
وتفرقها .. طرقُ

• • •

.. ولأنت جوارى ضاجعة
وأنا بجوارك ، مرتفق
وحديثك يغزله مرح
والوجه .. حديث متسق
ترخين جفونا
أغرقها سحر
فطفا فيها الغرق
وشبابك حانٌ جبليٌّ
أرز ، وغدير ينبثق

وبيد دهبى وحدى
مصطبح منه ومغتبق
وتغوص بقلبى نشوته .
تدفعنى فيكِ .. فتلتصق
وأمد يدين معربدتين
فثوبك فى كفى ..
مزق
وذراعك يلتف
ونهر من أقصى الغابة يندفق
وأضمك
شفة فى شفة
فيغيب الكون ، وينطبق
....
وتموت النار
فنرقبها
بجفون حار بها الأرق
خجلى !
وشفاهك ذائبة
وثمارك نشوى تندلق

ونعود نثرثر
كبحيرات هادئة
غطاها الورق
ويمر الوقت فلا ندرى
ويقيم محافله الشفق
وتدق الساعة معلنة
فيهب بنا صحو قلق
ويحين وداع
وفتى
وأراه كحلم ينسحق
يرتد الصمت لموضعه
ويعود إلى الأذن الحلق
ونمد الأيدى
راغمة
نتشاكى العتب
وتنزلق !
وأحس بشيء فى صدرى
شيء .. كالفرحة
يحترق !

قالت

قالت : تعال إلىّ
واصعد ذلك الدرج الصغير
قلت : القيود تشدنى
والخطو مضنى لا يسير
مهما بلغت فلست أبلغ ما بلغتِ
وقد أخور
درج صغير
غير أن طريقه .. بلا مصير
فدعى مكانى للأسى
وامضى الى غدك الأمير
فالعمر أقصر من طموحى
والأسى قتل الغدا

* * *

قالت : سأنزل
قلت : يا معبودتى لا تنزلى لى

قالت : سأنزل
قلت : خطوك منته فى المستحيل
ما نحن ملتقيان
رغم توحد الأمل النبيل
... ...
نزلت تدق على السكون
رنين ناقوس ثقيل
وعيوننا متشابكات فى أسى الماضى الطويل
تخطو إلىَّ
وخطوها ما ضلّ يوماً عن سبيل
وبكى العناق
ولم أجد إلا الصدى
إلا الصدى

ماريا

ماريّا ؛ يا ساقية المشرب
الليلة عيد
لكنا نخفى جمرات التنهيد !
صبى النشوة نخباً .. نخبا
صبى حبا
قد جئنا الليلة من أجلك
لنريح العمر المتشرد خلف شعاع الغيب المهلك

فى ظل الأهداب الإغريقية !
ما أحلى استرخاءة حزن فى ظلك
فى ظل الهدب الأسود
....
ـــ ماذا يا ماريّا ؟
ـــ الناس هنا كالناس هنالك فى اليونان
بسطاء العيشة ، محبوبون
ـــ لا يا ماريّا

لناس هنا — فى المدن الكبرى — ساعات
لا تتخلف
لا تتوقف
لا تتصرف
آلات ، آلات ، آلات
كُفى يا ماريّا
نحن نريد حديثاً نرشف منه النسيان !
....
ماذا يا سيدة البهجة ؟
العام القادم فى بيتى زوجة ؟!
قد ضاعت يا ماريا من كنت أود
ماتت فى حضن آخر
لكن ما فائدة الذكرى
ما جدوى الحزن المقعد
نحن جميعاً نحجب ضوء الشمس ونهرب
كفى يا ماريّا
نحن نريد حديثاً نرشف منه النسيان
....
قولى يا ماريّا

أوَما كنت زماناً طفلة
يلقى الشعر على جبهتها ظله
من أول رجل دخل الجنه واستلقى فوق الشطآن
علقت فى جبهته من ليلك خصلة
فضَّ الثغر بأول قبلة
أوَما غنيت لأول حبّ
غنينا يا ماريّا
أغنية من سنوات الحب العذب
....
....
....
ما أحلى النغمة
لتكاد تترجم معناها كلمة .. كلمة
غنيها ثانيةً .. غنى
(أوف .
لا تتجهم
ما دمت جوارى ، فلتتبسم
بين يديك وجودى كنز الحب
عيناى الليل .. ووجهى النور

شفتاى نبيذ معصورَ
صدرى جنتك الموعودة
وذراعاى وساد الرب
فتبسم للحب ، تبسم
لا تتجهم
لا تتجهم)

....

ما دُمت جوارك يا ماريّا لن أتجهم
حتى لو كنت الآن شباباً كان
فأنا مثلك كنت صغيراً
أرفع عينى نحو الشمس كثيراً
لكنى منذ هجرت بلادى
والأشواقْ
تمضغنى ، وعرفتُ الأطراق
مثلك منذ هجرت بلادك
وأنا أشتاق
أن أرجع يوماً ما للشمس
أن يورق فى جدبى فيضان الأمس

....

قولى يا ماريّا
العام القادم يبصر كلُّ منا أهله
كى أرجع طفلاً .. وتعودى طفلة
لكنا الليلة محرومون
صبى أشجانك نخباً .. نخبا
صبى حبا
فأنا ورفاق
قد جئنا الليلة من أجلك !

استريحى

استريحى
ليس للدور بقية
انتهت كل فصول المسرحية
فامسحى زيف المساحيق
ولا ترتدى تلك المسوح المريمية
واكشفى البسمة عما تحتها
من حنين .. واشتهاء .. وخطيه
كنت يوماً فتنه قدستها
كنت يوماً
ظمأ القلب .. وريه

° ° °

لم تكونى أبداً لى
إنما كنت للحب الذى من سنتين
قطف التفاحتين الحلوتين
ثم ألقى

ببقايا القشرتين
وبكى قلبك حزناً
فغدا دمعةً حمراء
بين الرئتين
وأنا ؛ قلبى منديل هوى
جففت عيناك فيه دمعتين
ومحت فيه طلاء الشفتين
ولوته ..
فى ارتعاشات اليدين
كان ماضيك جداراً فاصلاً بيننا
كان ضلالاً شبحية
فاستريحى
ليس للدور بقية
أينما نحن جلسنا
ارتسمت صورة الآخر فى الركن القصى
كنت تخشين من اللمسة
أن تمحى لمسته فى راحتى
وأحاديثك فى الهمس معى
إنما كانت إليه ..

لا إليَّ
فاستريحى الآن
لم يبق سوى حيرة السير على المفترق
كيف أقصيك عن النار
وفى صدرك الرغبة أن تحترق ؟
كيف أدنيك من النهر
وفى قلبك الخوف وذكرى الغرق ؟
أنا أحببتك حقاً
إنما لست أدرى
أنا .. أم أنت الضحية ؟
فاستريحى ، ليس للدور بقية

العار الذى نتقيه

هذا الذى يجادلون فيه
قولى لهم مَن أمه ، ومَن أبوه
أنا وأنت ..
حين أنجبناه ألقيناه فوق قمم الجبال كى يموت !
لكنه ما مات
عاد إلينا عنفوان ذكريات
لم نجترىء أن نرفع العيون نحوه
لم نجترىء أن نرفع العيون
نحو عارنا المميت

° ° °

ها طفلنا أمامنا غريب
ترشقه العيون والظنون بازدرائها
ونحن لا نجيب
(وربما لو لم يكن من دمنا
كنا مددنا نحوه اليدا

لكنه .. ما زال يقطع الدروب
يقطع الدروب
وفى عيوننا الأسى المريب

* * *

« أوديب » عاد باحثاً عن اللذين ألقياه للردى
نحن اللذان ألقياه للردى
وهذه المرة لن نضيعه
ولن نتركه يتوه
ناديه
قولى انك أمه التى ضنت عليه بالدفء
وبالبسمة والحليب

قولى له أنى أبوه
(هل يقتلنى ؟) أنا أبوه
ما عاد عاراً نتقيه
العار : أن نموت دون ضمة
من طفلنا الحبيب
من طفلنا « أوديب »

رسالة من الشمال

بعمرٍ — من الشوك — مخشوشنٍ
بعرق من الصيف لم يسكنٍ
بتجويف حبٍ ، به كاهن
له زمن .. صامت الأرغن :
أعيش هنا
لا هُنا ، إننى
جهلتُ بكينونتى مسكنى
غدى : عالم ضل عنى الطريق
مسالكه للسدى تنحنى
علاماته .. كانثيال الوضوء
على دنسٍ منتنٍ .. منتن
تفحّ السواسنَ سم العطور
فأكفر بالعطر والسوسن
وأفصد وهمى .. لأمتصه
فيمتصنى الوهم ، يمتصنى ..

* *

ملاكى : أنا فى شمال الشمال
أعيش .. ككأسٍ بلا مدمن
ترد الذباب انتظاراً ، وتحسو
جمود موائدها الخوّنِ
غريب الحظايا ، بقايا الحكايا
من الليل لليل تستلنى
أرش ابتسامتى على كل وجهٍ
توسد فى دُهنه الليِّن
ويجرحنى الضوء فى كل ليل
مرير الخطى ، صامت ، محزن
سريت به ـــ كالشعاع الضئيل ـــ
الى حيث لا عابرٌ ينثنى
هى اسكندرية بعد المساء
شتائية القلب والمحضن
شوارعها خاويات المدى
سوى : حارسٍ بى لا يعتنى
ودورة كلبين كى ينسلا
ورائحة الشبق المزمن
ملاكى .. ملاكى .. تساءل عنكِ

اغتراب التفرد فى مسكنى
سفحت لك اللحن عبر المدى
طريقاً إلى المبتدأ ردنى
وعيناك : فيروزتان تضيئان
فى خاتم الله .. كالأعين
تمدان لى فى المغيب الجناح
مدىً ، خلف خلف المدى الممعن
سألتهما فى صلاة الغروب
عن الحب ، والموت ، والممكن
ولم تذكرا لى سوى خلجةٍ
من الهدب قلت لها : هيمنى !
هواى له الشمس تنهيدة
إلى اليوم بالموت لم تؤمن
وكانت لنا خلوة ، إن غدا
لها الخوف أصبح فى مأمن
مقاعدها ما تزال النجوم
تحج إلى صمتها المؤمن
حكينا لها ، وقرأنا بها
بصوت على الغيب مستأذن

دنوّا ، دنوّا ففى جعبتى
حكايات حب سنى ، سنى
صقلت به الشمس حتى غدت
مرايا مساء لتزيّنى
وصفت لك النجم عقداً من
الماس شع على صدرك المفتنى
أردتك قبل وجود الوجود
وجوداً لتخليده لم أن
تغربت عنك ، لحيث الحياة
مناجم حلم بلا معدن
ودورة كلبين كى ينسلا
ورائحة الشبق المزمن

° ° °

ملاكى : ترى ما يزال الجنوب
مشارق للصيف لم تعلن
ضممت لصدرى تصاويرنا
تصاوير تبكى على المقتنى
سآتى إليك أجر المسير
خطى فى تصلبها المذعن

سآتى إليك كسيف تحطم
فى كف فارسه المثخن
سآتى إليك نحيلاً .. نحيلا
كخيط من الحزن لم يحزن

° ° °

أنا قادم من شمال الشمال
لعينين — فى موطنى — موطنى !

أوتوجراف

لن أكتب حرفاً فيه
فالكلمة — إن تكتب — لا تكتب
من أجل الترفيه
(والأوتوجراف الصامت تنهدل الكلمات عليه ،
تحييه
وتطرز كل مثانيه !
ماضيك
— وماضى الأوتوجراف —
بقايا شوق مشبوه
بصمات الذكرى فيك ، وفيه
وخطى العشاق المحمومة أدمت كل دواليه
لكنى أطرد كل ذباب الماضى عن بالى
فدعيه
غيرى قد يصبح سطراً من ورق
يقلبه من يجهله أو من يدريه

غيرى قد ينبش تابوتاً براق اللون
تعفن خافيه
لكنى أطرد كل ذباب الذكرى
عن غدى المشدوه
عن ثوبى ، وطعامى ، وفراشى
عن خطوة تيهى
....
يا أصغر من كلماتى
لن أكتب فيه
فخطى العشاق المحمومة أدمت كل دواليه !

شبيهتها

انتظرى !.
ما اسمك ؟
يا ذات العيون الخضر والشعر الثرى
أشبهت فى تصورى
(بوجهك المدورِ)
حبيبةً أذكرها .. أكثر من تذكرى
يا صورة لها على المرآة ، لم تنكسرِ
حبيبتى — مثلك —
لم تشبه جميع البشرِ
عيونها حدائق حافلة بالصورِ
أبصرتها اليوم بعينيك
اللتين صبتا فى عُمُرى ..
طفولة .. منذ اتزان الخطو لم تنحسر
° ° °
يا ظل صيف أخضر

تصورى
كم أشهرٍ وأشهر
مرت ولسنا نلتقى
مرت .. ولم نخضوضرِ
الماس فى مناجمى
مشوه التبلورِ
والذكريات فى دمى
عاصفة التحرر
كرقصة نارية من فتيات الغجرِ
. . . .
لكننى حين رأيت الآن صورة لها
فى مهجرى
أيقنت أن ماسنا ما زال
حىّ الجوهر
وأننا سنلتقى ..
رغم رياح القدر
وأننى فى فمك المستضحك المستبشر
أغنية للقمر
أغنية ترقص فيها القرويات

• • •

يا ظل صيف أخضر
تصورى
كم أشهرٍ وأشهر
مغترباً عن العيون الخضر والشعر الثرى

العينان الخضراوان

العينان الخضراوان
مروحتان
فى أروقة الصيف الحران
أغنيتان مسافرتان
أبحرتا من نايات الرعيان
بعبير حنان
بعزاء من آلهة النور إلى مدن الأحزان
سنتان
وأنا أبنى زورق حب
يمتد عليه من الشوق شراعان
كى أبحر فى العينين الصافيتين
إلى جزر المرجان
ما أحلى أن يضطرب الموج فينسدل الجفنان
وأنا أبحث عن مجداف
عن إيمان !

• • •

فى صمت « الكاتدرائيات » الوسنان
صور « للعذراء » المسبلة الأجفان
يا من أرضعت الحب صلاة الغفران
وتمطى فى عينيك المسبلتين
شبابُ الحرمان
رُدِّى جفنيك
لأبصر فى عينيك الألوان
أهما خضراوان
كعيون حبيبى ؟
كعيون يبحر فيها البحر بلا شطآن
يسأل عن حبّ
عن ذكرى
عن نسيان !
قلبى حران ، حران
والعينان الخضراوان
مروحتان !

Petit Terianor
(الملهى الصغير)

لم يعد يذكرنا حتى المكان !
كيف هنا عنده ؟
والأمس هان ؟
قد دخلنا ..
لم تُشر مائدةٌ نحونا !
لم يستضفنا المقعدان !!
الجليسان غريبان
فما بيننا إلا . ظلال الشمعدان !
أنظرى ؛
قهوتنا باردة
ويدانا ــ حولها ــ ترتعشان
وجهك الغارق فى أصباغه
وجهى الغارق فى سحب الدخان
رُسِمَا

(ما ابتسما !)
فى لوحة خانت الرسامَ فيها ..
لمستان !!
تُسدل الأستار فى المسرح
فلنضىء الأنوار
إن الوقت حان
أمن الحكمة أن نبقى ؟
سَدىً !!
قد خسرنا فرسينا فى الرهان !
قد خسرنا فرسينا فى الرهان
مالنا شوط مع الأحلام
ثان !!
نحن كنا ها هنا يوماً
وكان
وهج النور علينا مهرجان
يوم أن كنا صغاراً
نمتطى صهوة الموج
إلى شط الأمان
كنتُ طفلاً لا يعى معنى الهوى

وأحاسيسك مرخاة العنان
قطة مغمضة العينين
فى دمك البكر لهيب الفوران
عامنا السادس عشر :
رغبة فى الشرايين
وأعواد لدان
هاهنا كلّ صباح نلتقى
بيننا مائدة
تندى .. حنان
قدمانا تحتها تعتنقان
ويدانا فوقها تشتبكان
إن تكلمت :
ترنَّمت بما همسته الشفتان الحلوتان
وإذا ما قلتُ :
أصغت طلعةٌ حلوةٌ
وابتسمت غمازتان !
أكتب الشعر لنجواك
(وإن كان شعراً بغائىّ البيان)
كان جمهورى عيناك !

إذا قلته : صفقتا تبتسمان
ولكن ينصحنا الأهل
فلا نصحهم عَزّ
ولا الموعد هانٍ
لم نكن نخشى إذا ما نلتقى
غير ألا نلتقى فى كل آن
ليس ينهانى تأنيب أبى
ليس تنهاك عصا من خيزران !!
الجنون البكر ولّى
وانتهت سنة من عمرنا
أو .. سنتان
وكما يهدأ عنف النهر
إن قارَبَ البحر
وقاراً .. واتزان
هدأ العاصف فى أعماقنا
حين أفرغنا من الخمر الدنان
قد بلغنا قمة القمة
هل بعدها إلا .. هبوط العنفوان
افترقنا ..

(دون أن نغضب)
لا يغضب الحكمةَ صوتُ الهذيان
ما الذى جاء بنا الآن ؟
سوى لحظة الجبن من العمر الجبان
لحظة الطفل الذى فى دمنا
لم يزل يحبو ..
ويكبو ..
فيُعان !
لحظة فيها تناهيد الصبا
والصبا عهد إذا عاهد : خان
أمن الحكمة أن نبقى ؟
سدىً
قد خسرنا فرسينا فى الرهان

° ° °

قبلنا يا أخت فى هذا المكان
كم تناجى ، وتناغى عاشقان
ذهَبَا
ثم ذهبنا
وغداً ..

يتساقى الحب فيه آخران !

فلندعْهُ لهما

ساقية ..

دار فيها الماءُ

مادار الزمان !!

البكاء بين يدي زرقاء اليمامة

دياجة

آه .. ما أقسى الجدار
عندما ينهض في وجه الشروق .
ربما ننفق كل العمر .. كي ننقب ثغره
ليمر النور للأجيال .. مره !
... ...
ربما لو لم يكن هذا الجدار ..
ما عرفنا قيمة الضوءِ الطليق !!

إلى « مازن جودت أبو غزالة »
. عرفته فى سنوات التساؤل .
. رحل معَ « العاصفة » .

للوهلة الأولىٰ
قرأتُ في عينيه يومَه الذى يموتُ فيه .
رأيتُه فى صحراء « النقب » مقتولا ..
منكفئاً .. يغرز فيها شفتيه ،
وهى لا تردُّ قبلةً .. لفيه !
نتوه فى القاهرة العجوز ، ننسى الزمنا
نفلت من ضجيج سياراتها ، وأغنيات المتسولين
تُظلنا محطةُ المترو مع المساء .. متعبين .
وكان يبكى وطنا .. وكنتُ أبكى وطنا
نبكى إلى أن تنضب الأشعار
نسألها : أين خطوط النار ؟
وهل تُرى الرصاصة الأولى هناك .. أم هنا ؟
• • •

والآن .. ها أنا
أظل طول الليل لا يذوق جفنى وَسَنا
أنظر فى ساعتىَ الملقاة فى جوارى
حتى تجيءَ . عابراً من نقط التفتيش والحصارِ
تتسع الدائرة الحمراء فى قميصك الأبيض ، تبكى شجر
من بعد أن تكسَّرتْ فى « النقب » رايتُكْ !
تسألنى : « أين رصاصتُكْ ؟ »
« أين رصاصتُكْ »
ثم تغيبُ : طائراً .. جريحا
تضرب أفقك الفسيحا
تسقط فى ظلال الضفَّة الأخرى ، وترجو كفنا !
وحين يأتى الصبحُ — فى المذياع — بالبشائر
أزيح عن نافذتى الستائر ،
فلا أراك .. !
أسقط فى عارى . بلا حراك
اسأل إن كانت هنا الرصاصةُ الأولى ؟
أم أنها هناك ؟ ؟

(١٩٦٨)

كلمات سبارتكوس الأخيرة

(مزج أول) :

المجد للشيطان .. معبود الرياحْ
من قال « لا » فى وجهِ من قالوا « نَعَمْ »
من عَلَّم الانسانَ تمزيقَ العدمْ
من قال « لا » .. فلم يَمُتْ ،
وظل رُوحاً أبديّة الألمْ !

(مزج ثان) :

مُعَلَّقٌ أنا على مشانق الصباحْ
وجبهتى ــ بالموت ــ محنيَّهْ
لأننى لم أحْنها .. حَيَّهْ !
... ...
ياإخوتى الذين يعبرون فى الميدان مطرقينْ
منحدرين فى نهاية المساءْ

فى شارع الاسكندر الأكبرْ :
لا تخجلوا .. ولترفعوا عيونكم إلىّْ
لأنكم معلقون جانبى .. على مشانق القيصرْ .
فلترفعوا عيونكم إلىّْ
لربما .. إذا التقت عيونُكم بالموتِ فى عَينَىّْ :
يبتسم الفناءُ داخلى .. لأنكم رفعتم رأسَكم .. مرَّهْ !
« سيزيفُ » لم تعد على أكتافه الصخرهْ
يحملها الذين يولدون فى مخادع الرقيقْ .
والبحر .. كالصحراء .. لا يروى العطشْ
لأن من يقولُ « لا » لا يرتوى إلاّ من الدموعْ !
.. فلترفعوا عيونكم للثائر المشنوقْ
فسوف تنتهون مثله .. غدا .
وقبِّلوا زوجاتكم .. هنا .. على قارعة الطريقْ
فسوف تنتهون ها هنا .. غدا .
فالانحناءُ مُرّ ..
والعنكبوتُ فوق أعناق الرجالِ ينسج الردى
فقبِّلوا زوجاتكم .. إنى تركتُ زوجتى بلا وداع

وإن رأيتم طفلىَ الذى تركتُه على ذراعها بلا ذراعْ
فعلّموه الانحناءْ !
علموه الانحناءْ !
الله . لم يغفر خطيئةَ الشيطانِ حين قال لا !
والودعاءُ الطيّبونْ ..
هم الذين يَرِثون الأرضَ فى نهاية المدى
لأنهم .. لا يشنقون !
فعلّموه الانحناء
وليس ثَمّ من مَفَرْ .
لا تحلُموا بعالمٍ سعيدْ
فخلف كل قيصرٍ يموتُ : قيصرٌ جديد !
وخلف كل ثائرٍ يموتُ : أحزانٌ بلا جدوى ..
ودمعةٌ سُدى !

(مزج ثالث) :

ياقيصر العظيمَ : قد أخطأتُ .. إنّى أعترف
دعنى ــ على مشنقتى ــ ألثُمْ يَدَكْ
ها أنذا أقبّل الحبلَ الذى فى عُنُقى يلتفّ

فهو يداك ، وهو مجدُك الذى يجبرنا أن نعبدكْ
دعنى أكفِّرْ عن خطيئتى
أمنحْك ــ بعد ميتتى ــ جمجمتى
تصوغُ منها لكَ كأساً لشرابكَ القوىّ
.. فان فعلتَ ما أريدْ :
إن يسألوك مرةً عن دمىَ الشهيدْ
وهل تُرى منحتنى « الوجود » كى تسلُبنى « الوجودْ »
فقل لهم : قد ماتَ .. غيرَ حاقدٍ علىّ
وهذه الكأسُ ــ التى كانت عظامُها جمجمتَهْ ــ
وثيقة الغفران لى .
ياقاتلى : إنى صفحتُ عنكْ ..
فى اللحظة التى استرحتَ بعدها منّى :
استرحتُ منكْ !
لكننى .. أوصيكَ إن تشأ شنق الجميعْ
أن ترحم الشجرْ !
لا تقطع الجذوع كى تنصبها مشانقا
لا تقطع الجذوع

فربما يأتى الربيع
« والعامُ عامُ جوع »
فلن تشم فى الفروع .. نكهةَ الثمر !
وربما يمرُّ فى بلادنا الصيفُ الخَطِرْ
فتقطع الصحراء . باحثاً عن الظلالْ
فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير والرمال
والظمأ النارىّ فى الضلوع !
ياسيد الشواهد البيضاء فى الدجى ..
ياقيصر الصقيعْ !

(مزج رابع) :

يااخوتى الذين يعبرزن فى الميدان فى انحناءْ
منحدرين فى نهاية المساءْ
لا تحلموا بعالم سعيدْ ..
فخلف كل قيصرٍ يموت : قيصرٌ جديد .
وإن رأيتم فى الطريق « هانيبال »
فأخبروه أننى انتظرته مدىً على أبواب « روما » المجهدة

وانْتَظَرَتْ شيوخ روما ـــ تحت قوسِ النصر ـــ قاهر الأبطال
ونسوةُ الرومان بين الزينة المعربدة
ظللنَ ينتظرن مقدمَ الجنودْ ..
ذوى الرءوس الأطلسيَّة المجعدة
لكن « هانيبالَ » ما جاءت جنوده المجندة
فأخبروه أننى انتظرتُه .. انتظرتُه ..
لكنه لم يأت !
وأننى انتظرتُهُ .. حتى انتهيتُ فى حبال الموت
وفى المدى : « قرطاجةٌ » بالنار تحترقْ
« قرطاجةٌ » كانت ضميرَ الشمسِ : قد تعَّلمتْ معنى الركوع
والعنكبوتُ فوق أعناق الرجالْ
والكلماتُ تختنقْ
يا اخوتى : قرطاجةُ العذراءُ تحترقْ
فقبِّلوا زوجاتكم ،
إنى تركت زوجتى بلا وداع
وإن رأيتم طفلىَ الذى تركتُه على ذراعها .. بلا ذراع
فعلِّموه الانحناءْ ..

علّموه الانحناءْ ..
علّموه الانحناءْ ..

(ابريل ١٩٦٢)

الأرض .. والجرح الذى لا ينفتح

الأرض مازالت ، بأذنيها دمٌ من قرطها المنزوع ،
قهقهةُ اللصوص تسوق هودجها .. وتتركُها بلا زادٍ ،
تشدُّ أصابعَ العطش المميتِ على الرمالِ ،
تضيع صرختُها بحمحمة الخيولْ .
الأرضُ ملقاةٌ على الصحراء .. ظامئة ،
وتلقى الدلو مراتٍ .. وتخرجه بلا ماءٍ !
وتزحف فى لهيب القيظ ..
تسأل عن عذوبة نهرها ..
والنهر سمَّمَهُ المغولْ
وعيونُها تخبو من الاعياءِ ، تستسقى جذورَ الشوكِ ،
تنتظرُ المصيرَ المرَّ .. يطحنها الذبولْ

• • •

من أنت ياحارسْ ؟

إنى أنا الحجّاج ..
عصّبنى بالتاج ..
تشرينُها القارسْ !

* * *

الأرض تُطوىٰ فى بساط « النفط » ،
تحملها السفائنُ نحو « قيصرَ » كى تكون إذا تفتَّحت
اللفائف :
رقصةً .. وهديةً للنار فى أرض الخطاةْ .
دينارها القصدير مصهورٌ على وجناتها .
زنّارها المحلول يسأل عن زناة الترك ،
والسيّاف يجلدها ! وماذا ؟ بعد أن فقدت بكارتها ..
وصارت حاملاً فى عامها الألفىِّ من ألفين من عشاقها !
لا النيل يغسل عارها القاسى .. ولا ماء الفرات !
حتى لزوجة نهرها الدموى ،
والأموى يقعى فى طريق النبع :
« .. دون الماء رأسك ياحسينُ .. »
وبعدها يتملكون ، يضاجعون أراملَ الشهداء ،

ولا يتورعون ، يؤذنون الفَجْرَ .. لم يتطهَّروا من رجسهم ،
فالحق مات !

* * *

هل ثبَّت الثقفىّ
قناعَهُ المهزوزْ ؟
فقد مضى تموزْ ..
بوجهه العربىّ !

* * *

أحببت فيك المجد والشعراءَ ..
لكنَّ الذى سرواله من عنكبوت الوهم :
يمشى فى مدائنك المليئةِ بالذبابْ
يسقى القلوب عصارةَ الخدر المنمَّقِ ،
والطواويس التى نزعت تقاويم الحوائطِ ،
أوقفت ساعاتها ،
وتجشأت بموائد السفراء ..
تنتظر النياشين التى يسخو بها السلطانُ ..
فوق أكابر الأغواث منهم !
ياسماء :

أكلَّ عام : نجمةٌ عربيةٌ تهوى ..
وتدخل نجمةٌ برج البرامك ! ؟
ما تزال مواعظُ الخصيان باسم الجالسين على الحرابْ ؟
وأراكِ .. و« ابن سلول » بين المؤمنين بوجهه القُزَحيِّ ..
يسرى بالوقيعة فيكِ ،
والأنصارُ واجمةٌ ..
وكل قريشَ واجمةٌ ..
فمن يهديه للرأى الصوابْ ؟ !

***

ملثَّما يخطو ..
قد شوّهته النارْ !
هل يُصلح العطارْ
ما أفسد النفطُ ؟

• • •

لم يبق من شىء يقالْ .
يا أرضُ :
هل يلدُ الرجالْ ؟

(مايو ١٩٦٦)

البكاء بين يدى زرقاء اليمامة

أيتها العرافة المقدَّسةْ ..
جئتُ إليك .. مثخناً بالطعنات والدماءْ
أزحف فى معاطف القتلى ، وفوق الجثث المكدّسة
منكسر السيف ، مغبَّر الجبين والأُعضاءْ .
أسأل يازرقاءْ ..
عن فمكِ الياقوتِ عن ، نبوءة العذراء
عن ساعدى المقطوع .. وهو مايزال ممسكاً بالراية المنكَّسة
عن صور الأَطفال فى الخوذات .. ملقاةً على الصحراء
عن جارىَ الذى يَهُمُّ بارتشاف الماء ..
فيثقب الرصاصُ رأسَه .. فى لحظة الملامسة !
عن الفم المحشوّ بالرمال والدماء !!
أسأل يازرقاء ..
عن وقفتى العزلاء بين السيف .. والجدارْ !
عن صرخة المرأة بين السَّبى . والفرارْ ؟

كيف حملتُ العار ..
ثم مشيتُ ؟ دون أن أقتل نفسى ؟ ! دون أن أنهار ؟ !
ودون أن يسقط لحمى .. من غبار التربة المدنسة ؟ !
تكلّمى أيتها النبية المقدسة
تكلمى .. بالله .. باللعنةِ .. بالشيطانْ
لا تغمضى عينيكِ ، فالجرذان ..
تلعقُ من دمى حساءَها .. ولا أردُّها !
تكلمى ... لشدَّ ما أنا مُهان
لا اللّيل يُخفى عورتى .. ولا الجدران !
ولا اختبائى فى الصحيفة التى أشدُّها ..
ولا احتمائى فى سحائب الدخان !
.. تقفز حولى طفلةٌ واسعةُ العينين .. عذبةُ المشاكسة
(ـــ كان يَقُصُّ عنك يا صغيرتى .. ونحن فى الخنادقْ
فنفتح الأزرار فى ستراتنا .. ونسند البنادقْ
وحين مات عَطَشاً فى الصحراء المشمسة ..
رطَّب باسمك الشفاه اليابسة ..
وارتخت العينان !)

فأين أخفى وجهىَ المتَّهمَ المدان ؟
والضحكةُ الطروب : ضحكته ..
والوجهُ .. والغمازتانْ ! ؟

* * *

ايتها النبية المقدسة ..
لا تسكتى .. فقد سَكَتُّ سَنَةً فَسَنَةً ..
لكى أنال فضلة الأمانْ
قيل لىَ « اخرسْ .. »
فخرستُ .. وعميت .. وائتممتُ بالخصيان !
ظللتُ فى عبيد (عبسٍ) أحرس القطعان
أجتزُّ صوفَها ..
أردُّ نوقها ..
أنام فى حظائر النسيان
طعامىَ : الكسرةُ .. والماءُ .. وبعض التمرات اليابسة .
وها أنا فى ساعة الطعانْ
ساعةَ أن تخاذل الكماةُ .. والرماةُ .. والفرسانْ
دُعيت للميدان !

أنا الذى ما ذقتُ لحمَ الضان ..
أنا الذى لا حولَ لى أو شأن ..
أنا الذى أقصيت عن مجالس الفتيان ،
أدعى الى الموت .. ولم أدع الى المجالسة !!
تكلمى أيتها النبية المقدسة
تكلمى .. تكلمى ..
فها أنا على التراب سائلٌ دمى
وهو ظمىءٌ .. يطلب المزيدا .
أسائل الصمتَ الذى يخنقنى :
« ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! »
« أجندلاً يحملن أم حديدا .. ؟! »
فمن تُرى يصدُقُنى ؟
أسائل الركَّع والسجودا
أسائل القيودا :
« ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! »
« ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! »

• • •

أيتها العرّافة المقدسة ..
ماذا تفيد الكلمات البائسة ؟
قلتِ لهم ما قلتِ عن قوافل الغبارْ ..
فاتهموا عينيكِ ، يازرقاء ، بالبوارْ !
قلتِ لهم ما قلتِ عن مسيرة الأشجار ..
فاستضحكوا من وهمكِ الثرثار !
وحين فُوجئوا بحدِّ السيف : قايضوا بنا ..
والتمسوا النجاةَ والفرار !
ونحن جرحى القلبِ ،
جرحى الروحِ والفم .
لم يبق إلا الموتُ ..
والحطامُ ..
والدمارْ ..
وصبيةٌ مشرّدون يعبرون آخرَ الأنهارْ
ونسوةٌ يسقن فى سلاسل الأسرِ ،
وفى ثياب العارْ
مطأطئات الرأس .. لا يملكن إلا الصرخات التاعسة !
....

ها أنت يازرقاءْ
وحيدةٌ ... عمياءْ !
ومازالت اغنياتُ الحبِّ .. والأضواءْ
والعرباتُ الفارهاتُ .. والأزياءْ !
فأين أخفي وجهيَ المُشَوَّها
كي لا أعكّر الصفاء .. الأبلهَ .. المموَّها .
في أعين الرجال والنساءْ !؟
وأنت يازرقاء ..
وحيدة .. عمياء !
وحيدة .. عمياء !

(١٣ ــ ٦ ــ ٦٧)

(صوت)

(١)

أيلول الباكي فى هذا العام
يخلع عنه فى السجن قلنسوة الاعدام
تسقط من سترته الزرقاء.. الأرقام !
يمشي فى الأسواق : يبشر بنبوّته الدموية
ليلة أن وقف على درجات القصر الحجرية
ليقول لنا: ان سليمان الجالس منكفئا
فوق عصاه
قد مات ! ولكنا نحسبه يغفو حين نراه !!
أواه .
قال .. فكممناه ، فقأنا عينيه الذاهلتين
وسرقنا من قدميه الخفين الذهبيين
وحشرناه فى أروقة الأشباح المزدحمة

(جوقة خلفية)

ها نحن يا ايلول
لم ندرك الطعنة
فحلت اللعنة
فى جيلنا المخبول !
... ...

قد حلت اللعنة
فى جيلنا المخبول
فنحن يا أيلول
لم ندرك الطعنة !
... ...

(صوت) :
ونسينا يا ايلول الكلمة .

*** (٢)

فى سورية
كانت تتهاوى رايات أمية
فرفعناها علماً علماً .. ووقعنا فى أسر الروم
لكنا فى طابور الأسرى المهزوم
كنا ننتظر زياد بن أبيه
نيعود ، فينقذنا مما نتسربل فيه .
كنا نبصر وردتنا الصابحة الحمراء
تنمو فى شرفة بيت فى حلب الشهباء
وظللنا ننتظر .. تطول الأظفار .. ويبيض
السالف
..ذات صباح عاصف
كنا نشرب حين أتتنا الأنباء
.. فتعكر لون الماء !

(جوقة خلفية) :
فحلت اللعنة !

**

الأمراء الصم
ماتوا على المداخل
لم يبق إلا « الداخل »
يعبر نهر الدم !
... ...
لم يبق إلا « الداخل »
يعبر نهر الدم !
والأمراء الصم

ماتوا على المداخل
... ...
ماتوا على المداخل
لم يبق إلا « الداخل »

*** (٣)

لو زرت دمشق
لوقفت على أبواب « المزه » ولتابعت
الطرق
ودلفت الى غرفات التعذيب ..

(صوت) :
ورأيتك تضحك يا أيلول وأنت على
الأخشاب تدق .
فلقد أبصرتك فى آخر ليلة
مصلوباً تتأرجح فى باب زويلة !
ولمست أصابع قدميك هنيهات ما بين
الدهشة والتكذيب
وحشوت جراحك بتراب الأرض [illegible]
ولفقتك فى الرايات المنكودة
وحملتك حتى واريتك فى مقبرة
الصمت .. وراء الشرق .
لكنى أسمع صوتك فى الليل ؛ تغنى
ياايلول

**

فى ضجة المذياع
يخف صوت الحق !
فمن يقول الصدق .

(جوقة خلفية) :

كى نرهف الأسماع ؟
... ...
من ذا يقول الصدق

كى نرهف الأسماع ؟
فضجة المذياع
تخفت صوت الحق !

... ...

يخفت صوت الحق

تجعل من تجويفات عظام الموتى : قصبات
الأرغول
فيجىء غناؤك . ممزوجا بنحيب !

(الجوقة) :
هذا العام ..
أعطينا جرحانا آخر ما يملكه الصيف من
الأنسام
وبقينا فى المهد المختنق المبحوح .
لكنا من كل ضريح
ننتظر الريح !
... ...

فمن يقول الصدق ؟
... ...

(صوت) :
ننتظر الريح

من كل ضريح
... ...
من كل ضريح
ننتظر الريح
... ...

(سبتمبر ١٩٦٧)

(١)

عرفتُ هذه المدينة الدخانيَّة .
مقهى فمقهى .. شارعاً فشارعاً
رأيت فيها (اليشمكَ) الأسود والبراقعا
وزرتُ أوكار البغاء واللصوصية !
على مقاعد المحطة الحديدية ..
نمت على حقائبى فى الليلة الأُولى
(حين وجدت الفندق الليلىّ مأهولا ؟)
وانقشع الضباب فى الفجر .. فكشَّف البيوتَ والمصانعا
والسفن التى تسير فى القناة ؛ كالأُوزّ ..
والصائدين العائدين فى الزوارق البخارية !

* * *

(رأيتُ عمال « السماد » يهبطون من قطار « المحجر » العتيقْ
يعتصبون بالمناديل الترابيّة
يدندنون بالمواويل الحزينة الجنوبيَّة

ويصبح الشارع .. درباً .. فزقاقاً .. فمضيقْ
فيدخلون فى كهوف الشجن العميقْ
وفى بحار الوهم : يصطادون أسماك سليمان الخرافيَّة !)

* * *

عرفتُ هذه المدينة ؟
سكرت فى حاناتها
جُرحت فى مشاحناتها
صاحبت موسيقارها العجوز فى (تواشيح) الغناءْ
رهنت فيها خاتمى .. لقاء وجبة العشاء
وابتعتُ من « هيلانةَ » السجائر المهرّبة .
وفى « الكبانُون » سبحتُ
واشتهيت أن أموت عند قوس البحر والسماء !
وسرتُ فوق الشُعَب الصخريَّة المدببة
ألْقُطُ منها الصَّدَفَ الأزرقَ والقواقعا .
وفى سكون الليل ؛ فى طريق « بور توفيق »
بكيت حاجتى الى صديق
وفى أثير الشوق : كدت أن أصير .. ذبذبةْ !

(٢)

والآن ؛ وهى فى ثياب الموت والفداءْ

تحصرها النيران .. وهى لا تلينْ
أذكر مجلسى اللاهى .. على مقاهى « الأربعينْ »
بين رجالها الذين ..
يقتسمون خبزها الدامى . وصمتها الحزين
ويفتح الرصاصُ — فى صدورهم — طريقنا إلى البقاء .
ويسقط الأطفال فى حاراتها
فتقبض الأيدى على خيوط « طائراتها »
وترتخى — هامدةً — فى بركة الدماء .
وتأكل الحرائق ..
بيوتها البيضاء والحدائق ..
ونحن ها هنا .. نعضُّ فى لجام الانتظارْ !
نصغى الى أنبائها .. ونحن نحشو فمنا ببيضة الافطار !
فتسقط الأيدى عن الأطباق والملاعقْ
أسقُطُ من طوابق القاهرة الشواهق
أبصر فى الشارع أوجُهَ المهاجرين
أعانق الحنين فى عيونهم .. والذكرياتْ
أعانق المحنة والثباتْ .
... ...
هل تأكل الحرائق

بيوتها البيضاء والحدائق
بينما تظل هذه « القاهرة » الكبيرة
آمنةً .. قريرة !؟
تضيء فيها الواجهاتُ فى الحوانيت ، وترقص النساء ..
على عظام الشهداء !؟

— ١ —

أعرف أن العالم فى قلبى .. مات !
لكنى حين يكفُّ المذياعُ .. وتنغلق الحجرات :
أنبش قلبى ، أخرج هذا الجسد الشمعىّ
وأسجِّيه فوق سرير الآلام .
أفتح فمه ، أسقيه نبيذَ الرغبة
فلعلَّ شعاعاً ينبض فى الأطراف الباردة الصلبة
لكن .. تتفتت بشرتُه فى كفَّىّ
لا يتبقى منه .. سوى : جمجمةٍ .. وعظامْ !

— ٢ —

تنزلقين من شعاع لشعاع
وأنت تمشين — تُطالعين — فى تشابك الأغصان فى الحدائق
حالمةً .. بالصيف فى غُرفْات شهر العسل القصير فى الفنادق
ونزهة فى النهر ..
واتكاءةٍ على شراع !

... ...
.. وفى المساء ، فى ضجيج الرقص والتعانق
تنزلقين من ذراعٍ لذراع !
تتنقلين فى العيون ، فى الدخان العصبىِّ ، فى سخونة الإيقاع
وفجأةً .. ينسكب الشرابُ فى تحطم الدوارق
يبل ثوبك الفَرَاشىَّ .. من الأكمام حتى الخاصرة !
وحين يَفْغر المغنِّى فمه مرتبكا
تنفجرين ضحكا !
تشتعلين ضحكا !
وتخلعين الثوبَ فى تصاعدات النغم الصارخ .. والمطارق
وتخلعين خُفَّك المشتبك
ثمّ ...
تواصلين رقصك المجنون .. فوق الشَّظَيَات المتناثرة !!

— ٣ —

عينا القطةِ تنكمشان ..
فيدق الجرسُ الخامسةَ صباحا !
أتحسس ذقنى النابتةَ .. الطافحةَ بثُوراً وجراحا
(.. اسمع خطو الجارة فوق السقف

دفءُ الأغطية ، خريرُ الصنبور
خشخشةُ المذياع ، عذوبةُ جسدى المبهور
(.. والخطو المتردد فوق ليس يكف .. !)
لكنى فى دقة بائعة الألبان :
تتوقف فى فكى .. فرشاةُ الأسنان !

— ٤ —

فى الشارع ..
أتلاقى — فى ضوء الصبح — بظلّى الفارغ :
نتصافح .. بالأقدام !

— ٥ —

حبيبتى ، فى الغرفة المجاورة
أسمع وقع خطوها .. فى روحةٍ وجيئة
اسمع قهقهاتها الخافتة البريئة
اسمع تمتماتها المحاذِرة
حتى حفيف ثوبها ؛ وهى تدور فى مكانها .. تهم بالمغادرة
(.. يومان ؛ وهى إن دخلتْ :
تشاغلَت بقطعة التطريز ..
بالنظر العابر من شباكها الى الافريز ..

بالصمت إن سألْتُ !)
.. وعندما مرت عليَّ ؛ بقعةً مضيئة ؛
ألقت وراء ظهرها .. تحيةَ انصرافها الفاترة
فاحتقنت أذناى ، واحتبأتْ فى أعمدة الوظائف الشاغرة
حتى تلاشى خطوها .. فى آخر الدهليز !

— ٦ —

أطرق باب صديقى فى منتصف الليل
(تثب القطةُ من داخل صندوق الفضلات)
كلّ الأبواب ؛ العلويَّة والسفليَّة ، تُفتح إلا .. بابه
وأنا أطرق .. أطرق
حتى تصبح قبضتىَ المحمومةُ خفاشاً يتعلق فى بندولْ » !
... ...
يتدفق من قبضتى المجروحةِ خيطُ الدم
يترقرق .. عذباً .. منسابا .. يتساند فى المنحنيات
تغتسل الرئتان المتعبتان من اللون الدافىء ،
ينفثىء السمّ ..
يتلاشى البابُ المغلقُ .. والأعينُ .. والأصوات
... وأموت على الدرجات !!

تدق فوق الآلة الكاتبة القديمة
وعندما ترفع رأسها الجميلَ فى افتراق الصفحتين
تراه فى مكانه المختار .. فى نهاية الغرفة
يرشف من فنجانه رشفه
يريح عينيه على المنحدر الثلجى ، فى انزلاق الناهديْن !
(.. عينيه هاتين اللتين
تغسل آثارهما عن جسمها ـــ قبيل أن تنام ـــ مرتين !)
وعندما ترشقه بنظرة كظيمة
فيسترد لحظةً عينيه : يبتسم فى نعومة
وهى تشدُّ ثوبها القصير فوق الركبتين !
... ...
.. فى آخر الأسبوع
كان يَعُدُّ ـــ ضاحكا ـــ أسنانها فى كتفيه
فقرصت أذنيه ..
وهى تدس نفسها بين ذراعيه .. وتشكو الجوع

— ٨ —

حين تكونين معى أنتِ :
أصبح وحدى ..

فى بيتى !

... ...

- ٩ -

جاءت إلىّ وهى تشكو الغثيان والدوار
(.. انفقتُ راتبى على أقراصِ منع الحَمْلْ !)
ترفع نحوى وجهها المبتلّ ..
تسألنى عن حلّ !

... ...

هنأنى الطبيبُ ! حينما أصطحبتُها اليه فى نهاية النهارِ
رجونه أن يُنهى الأمرَ .. فثارَ (.. واستدارْ يتلو قوانين
العقوبات علىّ كى أكفَّ القول !)

هامش :
أفهمته أن القوانين تُسَنُّ دائماً . لكى تخرق
أن الضمير الوطنّى فيه يُملى أن يقلَّ النسل
أن الأثاث صار غالياً لأن الجدبَ أهلك الأشجار
لكنه .. كان يخاف الله .. والشرطةَ .. والتجار !

- ١٠ -

فى ليلة الزفاف ؛ فى التوهجِ المرهق

ظلت تُدير فى الوجوه وجهها المنتصر المشرق
وحين صرنا وحدنا — فى لحظة الصمت الكثيف الكلمات
داعَبت الخاتم فى اصبعها الأيسر ، ثم انكمشت خجلى !
(.. كانوا — وراء الباب — يكنسون النور والظلاً
وتخلع الراقصةُ الشقراءُ عريَها .. وتحسب الهبَات !)
قلت لها « ما أجمل الحفلا »
فاطرقَت باسمةَ الغمازتين والسمات .
وعندما لمستُها : تلجلجت أطرافُها الوجلى !
وانفلتت عجلى .. !
كأنها لم تذق الحب .. ولم يثر بصدرها التنهدات !!

- ١١ -

مذ علَّقنا — فوق الحائط — أو سمة اللهفة
وهى تطيل الوقفة فى الشرفة !
واليوم ..
قالت إن حبالى الصوتيَّة تقلقها عند النوم !
.. وانفردت بالغرفة !!

- ١٢ -

فى جلسة الافطار ، فى الهنيهة الطفليَّة المبكِّرة
أعصب عينى بالصحيفة التى يدُسها البائع تحت الباب

وزوجتى تبدأ ثرثرتها اليومية المثابرة
وهى تصبُّ شايَها الفاتر فى الأكواب !
(.. تقص عن جارتها التى ارتدت ..
وجارها الذى اشترى ..
وعن شجارها مع الخادم والبوّاب والقصّاب ،
.. ثم تشد من يدىّ : صفحة الكُرَةْ) !

- ١٣ -

.. العالم فى قلبى مات .
لكننى حين يكف المذياع ؛ وتنغلق الحجرات :
أخرجه من قلبى ، وأسجّيه فوق سريرى
أسقيه نبيذ الرغبة
فلعلّ الدفء يعود الى الأطراف الباردة الصلبة
لكن .. تتفتت بشرتُه فى كفى
لا يتبقى منه سوى .. جمجمةٍ .. وعظامْ !
... ... وأنام !!

(١٩٦٧)

اجازة فوق شاطىء البحر

أغسطس ،
الاسكندرية :
واليودُ ينشع فى رئتين ..
يسدُّ مَسامَّهما الرَّبو .. والأتربةُ !

ooo

طفولة « مايو » تشيخ ،
وفى الصبح : نرفع راياتنا البيض للبحرِ .. مستسلمينَ ،
لينْخرَنا الملحُ ، يمنح بشرتَنا النمشَ البرصىَّ ،
ونفرشُ أبسطةَ الظَّهرِ ، نجلسُ فوق الرمالِ ،
نُمرْوِحُ فى حزننا الغامضِ الشبقىِّ .. لكى يتوّهجَ !
(.. حين همَمنا بإمساكه : احترَقتْ يدُنا !) ،
نتلمسُ ثدى البكارةِ .. كيف تجفُّ النضارةُ فيه ،
فيفرزُ سُمّاً .. ودُوداً يعيث بتفاحةٍ معطبةْ !؟
... ...
وفى الليل . نخفضُ راياتنا ..

نقضُ الهدنةَ الأبديَّةَ ،
نجرؤ أن نتساءلَ « هل نحنُ موتىٰ » ؟!
وجولاتُنا فى الملاهى ،
اهتزازاتُنا فى الترامِ ،
تلاصقنا فى ظلام المداخلِ ،
ذبذبة النظرات أمام المعارضِ والعابراتِ الرشيقاتِ ،
مركبةُ الخيل حين تسير الهوينى بنا ،
الضحكات ، النكات :ــ
بقايا من الزَّبَدِ المرِّ .. والرغوة الذاهبةْ ؟!!
« تُرى نحن موتى .. »
وننشبُ أنيابنا فى الطيور المهاجرة المتعَبة !!

(٢)

صديقى الذى غاص فى البحر .. ماتْ !
فحنَّطتُه ..
(.. واحتفظتُ بأسنانِه ..
كلَّ يومٍ إذا طلع الصبحُ : آخذُ واحدةً ..
أقذف الشمسَ ذات المحيَّا الجميل بها ..
واردِّدُ : « يا شمسُ ؛ أعطيكِ سنَّتهُ اللؤلؤيَّة ..
ليس بها من غبارٍ .. سوى نكهةِ الجوعِ !!

رُدِّيه ، رُدِّيه .. يَرْوِ لنا الحكمة الصائبةْ »
ولكنها ابتسمت بسمةً شاحبةً !)
... ...
وكانت على البحر رايةُ حزنٍ ، وغضبةُ ريح
ونحن ــ مع الصمت ــ نحمل جثمانه فوق اكتافنا ،
ثم نهبط فى طرقات المدينةِ ،
نستوقف العابرين ،
نسائلهم عن طريق المدافنِ .. والرحلةِ الخائبةْ !
ولكننا فى النهاية ..
عدنا الى شاطىء البحرِ .. والرايةِ الغاضبة !!

• • •

بدايتُنا البحرُ ..
ــ حين قصدنا المقابرَ ! ــ
كيف رجعنا إليهِ ؟!
وكيف الطريقُ اشْتَبَهْ ؟!

(١٩٦٦)

موت مغنية مغمورة

صوت (١) :
أغلقى المذياع ؛
هذا زمن السكتةِ ،
« سالومى » تغنّى ..
من تُرى يحمل رأس « المعمدانْ » ؟!

ooo

فى انكساراتِ الظلالْ ..
تبدأ الأحزانُ فى أعماقنا إيقاعَها الهادىءَ ،
تصحو الرغبةُ المرتعشة .
تتوالى قطراتُ الصمت من صنبورها الفضىِّ ،
كى ترسم فى صفحة ماضينا .. الدوائرْ
صورةً لأمرأةٍ تجلس فى البهو ـــ تحوكُ الصوفَ ـــ
فى مئزرها البيتىِّ ، لفَاءَ الضفائرْ
نقراتُ المطر العذبةُ فى النافذة البيضاء ،
دفقُ الدفءِ من تمتمةِ القطةِ ،
موسيقى السكونِ الموحشةْ

مركباتُ الغدِ تدنو فى الخيالْ ..
تصهل الأفراسُ عند البابِ :
ـــ « أين القادمونْ ؟ »
ـــ الليلُ .. الوحدةُ .. والشوقُ المحالْ !

(تقاسيم) :
عقب استعراضها الفاشل .. لم تخلع رداء الرقصِ ،
ظلت خلف أستار « الكواليسِ » ،
تَرُدُّ السحبَ الزرقاءَ عن أعينها ، تبكى شباباً ..
كانت المتعةُ فيه : قطعةَ الجبن .. وكأسين من « الرومِ »
لكى تمرح فى غرفةِ ريفّىٍ من الطلابِ ..
لا تملكُ يمناهُ سوى الكسرةِ والتبغ الرخيص ،
ـــ الآن يمشى خلفَه .. سربٌ من الأطفالِ ،
عند النوم يسطُون على منظاره الطبىِّ .. حتى لا يرى
وجهها صافٍ .. وعيناها غديران من الحزنِ ،
ويدنو الخادمُ الأسمرُ ، يلقى باقةَ الوردِ ،
ويلقى دعوةً للسهرِ ..
(. الآن ستمضى ،
وغدا سوف يوافيها الطبيبُ ـــ الموتُ والاجهاضُ ـــ

هذا شهرُها الثالثُ . رغم الحذرِ الشائع !
حتى أنتِ يا أقراصَ مَنْعِ الحملِ ؟!
ما من أحدٍ فى هذه الدنيا جديرٌ بالأمانْ !)

منفرد

مَنْ يفترسُ الحَمَلَ الجائعْ
غيرُ الذئبِ الشبعانْ ؟
ارتاح الربُّ الخالقُ فى اليوم السابعْ
لكن .. لم يسترح الانسان

صوت (٢) :

وحدها.. تسّاقطُ الدمعةُ من عين الليالْ
بعد أن علّقها الوهمُ طويلا ..
وحدها ؛ سرعان ما ترشفها الأرض !
وينساها الرجالْ
شربوا قهوتها المُرّةَ ، والمذياعُ مازال يغنّى !
والمصابيحُ تُضاءُ !

الموت فى لوحات

(١)

مصفوفةٌ حقائبى على رفوف الذاكرة .
والسَّفَرُ الطويلْ ..
يبدأ دون أن تسير القاطرة !
رسائلى للشمسْ ..
تعود دون أن تمسّ !
رسائلى للأرض ..
تُردّ دون أن تُفضّ !
يميل ظلى فى الغروب دون أن أميل !
وها أنا فى مقعدى القانطْ .
وريقةٌ .. وريقةٌ .. يسقط عمرى من نتيجة الحائط
والوَرَقُ الساقط
يطفو على بحيرة الذكرى ، فتلتوى دوائرا
وتختفى .. دائرةٌ .. فدائرة !

(٢)

شقيقتى « رجاء » ماتت وهى دون الثالثة .

ماتت وما يزال فى دولاب امىَ السرىّ .
صندلُها الفضىّ !
صدارُها المشغول ، قرطُها ، غطاء رأسها الصوفىّ
أرنبها القطنىّ !
وعندما أدخل بهو بيتنا الصامت
فلا أراها تمسك الحائط .. علّها تقف !
أنسى بأنها ماتت ..
أقول . ربما نامت ..
أدور فى الغرف .
وعندما تسألنى أمى بصوتها الخافت
أرى الأسى فى وجهها الممتقع الباهت
وأستبين الكارثة !

(٣)

عرفتها فى عامها الخامس والعشرين .
والزمنُ العنّين ..
ينشب فى أحشائها أظفارَه الملويّة .
صلّت إلى العذراء ، طوفت بكل صيدلية
تقلبت بين الرجال الخشنين !
.. وما تزال تشترى اللفائف القطنية !

.. ما تزال تشترى اللفائف القطنية !
... ...
وحين ضاجَعَتْ أباها ليلةَ الرعدِ
تفجَّرتْ بالخصبِ والوعدِ
واختلجت فى طينها بشارةُ التكوين !
لكنها نادت أباها فى الصباح ..
فظلّ صامتا !
هزَّته .. كان ميتا !!

(٤)

من شرفتى كنت أراها فى صباح العطلة الهادىء
تنشر فى شرفتها على خيوط النور والغناء
ثيابَ طفليها ، ثياب زوجها الرسميّة الصفراء
قمصانه المغسولة البيضاء .
تنشر حولها نقاءَ قلبها الهانىء
وهى تروح وتجىء .
... ...
والآن بعد أشهر الصيف الردىء
رأيتها .. ذابلة العينين والأعضاء
تنشر فى شرفتها على حبال الصمت والبكاء

ثيابها السوداء ؛

(٥)

حبيبتى فى لحظة الظلام ؛ لحظة التوهج العذبة
تصبح بين ساعدىّ جثةً رطبة !
ينكسر الشوق بداخلى ، وتخفت الرغبة
أموء فوق خدها
أضرع فوق نهدها
أود لو أنفذ فى مسامِّ جلدها
لكن .. يظل بيننا الزجاجُ .. والغيابُ .. والغربة !
....
وذات ليلة ، تكسَّرت ما بيننا حواجزُ الرهبة
فاحتضنتنى .. بينما نحن نغوص فى قرارة التُّربة
تبعثرت فى رأسها شرائحُ الصورة والنجوم
واختلطت فى قلبها الأزمنةُ الهشيم
لكنها وهى تناجينى
سمعتها تنادينى
باسم حبيبها الذى قد حطم اللُّعبة
مخلّفاً فى قلبها .. ندبة !!

بطاقة كانت هنا

(١)

المنزل الثالث بعد المنحنى
الطابق الأخير .
بطاقة صغيرةٌ كانت هنا
وخيطُ ضوء كان من خلال بابها ينير !
الطابق الأخير ..
الوحشة السوداء فى الأعصاب تنغرس
يدى على الجرس :
سدى .. سدى !!
تراجعت فى أذنىَّ رحلةُ الصدى
وأساقط الرماد من لفافتى !
كانت هنا حبيبتى
عيونها محابرُ الضياع
عامٌ .. وعامان .. مدادُها الحزين لم يجفّ
صلاةُ هرة إلى الشتاء خلف باب

وبسمةٌ كأن نورساً على المدى يرفّ !
ها أنذا
يدٌ تساندت على الجدار
وخطوة تهبط للقرار !

(٢)

حانوتُ خمّار كئيب
يرسم فى كئوسه عرائس الأحلام ؛ فى الزجاج
توهجت عند امتلائها ..
وبعد برهةٍ .. عاودها الشحوب !
حبيبتى ملامح ابتسامةٍ على بريقها الوهّاج
« بنلوب » أين أنتِ يا حبيبتى الحزينة ؟
صيفان ملحدان فى مخاطر الأمواج
كقبضةٍ من العفونة ..
أعودُ ، كى يغتسل الحنين فى بحيرة اللهيب .
لكنما « بنلوب » ..
بطاقةٌ كانت هنا !
ووحشةٌ غريبةٌ ، وثقبُ بابٍ لم يعد يضىء !
وعنكبوتٌ قد أتمّ — فوق ركنه — نسيجهُ الصوفىّ !

لقد أتمَّ العنكبوتُ ما بدأت فى انتظارك الوفىّ !
ما كان كان ..
لكنما ملامح الزجاج
لا تعرف النسيان !

(٣)

الليل عند المنتصف
يا سائق السيارة العجوز .. قف
المنزل الثالث بعد المنحنى .
لكنها يا صاحبى العجوز .. لم تعد هنا !
امض هناك حيث لا مكان
حيث البيوت دونما عنوان
أوغل بنا فى رحلة السراب
قافلة الغناء تستعد للمسير خلف دورة الهضاب
لا تسأل الحادين عن وجهتها ، عن المآب
فهم هناك يرقبون أصبع النجوم
ضاعت معالمُ الطريق فى الضباب .
حبيبتى لابدّ أنها هناكِ
تسألُ عن رواحلَ ارتدَّت من الغروب
لا ترتبك ، فقد يضيع العمر فى هنيهة ارتباك .

حبيبتى : لقد نجوتُ من « سدوم »
طفلك آتٍ من مدينة الخراب
الموت ما يزال مقعياً على الأبواب
الخاطئون ..
هم الذين يرحلون
فى هذه القافلة المسدودة الدروب
... ...
سدى .. سدى ..
تراجعت فى أذنىّ رحلةُ الصدى
وأساقط الرمادُ من لفافتى .

جسدى : صخرة صهرتها الظهيرة .
حلقها يتفتّتُ ،
والبحرُ بعد ذراعين .. بُعد السماء !
فرسُ الموج تنفض أعرافها البيضَ ،
تعدو بمركبة الزرقة اللهبيَّةِ ،
لكنها تتحطم فوق الحواجز .. تهوى كسيرة !
أكشف الرأسَ تحت الرذاذِ ،
أمدُّ يدى حاملاً كوبىَ الفارغَ الورقىَّ ..
لتسبح فيه الفقاقيع ذات العيون الصغيرة
عطشٌ .. عطشٌ ، والنداء .
خنجر فى الهواء !
حين صار فمى فضةً : وقف الببَّغاء ..
عاريا .. نزعت ريشَه يدُها المحنقة .
قالت الزنبقة :
« أرخ عينيك .. وافتحهما .. »
ثم .. لم ألقها فى شجيرتها المُطرقة !

شعرُها طائرٌ جرفته الرياح
شعرها والوشاح
وهى تعدو .. وما بيننا الصمتُ والقشعريرة !
كل من شربوا .. هربوا دون أن يدفعوا ثمناً للعزاء
رَحَلوا .. بعد أن قلبوا فى التراب الاناء .
ووفدتُ على الحانِ : لم أر غير الحطام ..
وذبال المصابيح .. والقط يعبث بالفضلات الأخيرة .
ــ سيدى : مُلكك الحزنُ والكبرياء
خيطك ؟ انقطع الخيطُ منك ،
وعصفوره فرَّ دامى الجناح !
أمراء المدينة مرُّوا إلى الصيد عند الصباح
الفريسة تجرى .. ولكن كلبك يُرخى الذَّنَبْ
وهو يكتم فى رئتيه النباح !

***

فى سكون المساء
كنتُ أنقر عينَ الشهيد المجسَّم فوق النُّصُبْ
حين مرَّ السكارى .. يدورون فى حلقات الصخب
يبدأون الغناء:
« ياعيون النساء »
« أمطرى .. أمطرى »

« من تُرى تشترى خنجرى »
« لتخبئه فى حقيبتها .. »
« ثم تبقر بطن غريمتها المومياء ؟ »
(. أيها الأشقياء !)
.. مرَّ بى التائه المغترب
فتمدد فوق الحشائش .. ملتصقاً بالرخام
وتوسد دمعته ، ثم نام .
(ظمىء الناس للدم فى كل قلبٍ محب ..
فاسقهم يا غلام !)
مرَّ بى غاسلو الطرقات
فأداروا خراطيمهم ، غسلوا النُّصب الحجرىَّ ،
.. وكنتُ على الدرجات
أتأوّه مرتعشاً ، وثيابىَ تلصق فى جسدى المضطرب
والرياح تهب ، وتصفعنى بالعواء .
... ...
أهلىَ الغرباء .
عثروا بى مع الصبح ، أهذى بغيبوبة الموت ،
محتقن الوجه ، خاوى الوفاض
يتفتت حلقى لقطرة حُبّ ..
غير أن الينابيع جفّت بعينىَّ ، والبحر غاض ..

والشطوط العراض
تتناءَ ..
ويهوى البياض !

الحزن لا يعرف القراءة

تأكلني دوائرُ الغُبار .
أدور فى طاحونة الصمتِ ، أذوب فى مكانيَ المختار
شيئاً فشيئاً .. يختفى وجهى وراءَ الأقنعة
أعمدةُ البَرْقِ التى تطل من نوافذ القطار
كأنها سربُ إوزٍ أسود الأعناق
يطلق فى سكينتي صرخته المروّعة
ويختفى .. متابعاً رحلته مع التيار !
(صوتُك كانَ ؟
أم نعاسُ الشهوة الماكر ما بين انفراج الشفتين ؟
هذا الذى يشبك قلبى خاتما .. تحت نعومة القفّاز
حتى إذا اغْتَسَلْتِ — فى نهاية السهرة — من لزوجة الألفاظ
تخبئينه على نافذة الحمّام .. يستعيد ذكرياته ..
ويسترد الزمنَ الضائع بين الصورتين !؟)

°°°

توقفى أيتها الأشرطة البيضاء
فقد نرى الخيط الذى خلّفه الثعبانُ فوق الصحراء

قد نرى عظام من ماتوا من الظمأ
قد نرى .. وقد نرى ..
كنا الأشياء ..
دب فيها نبضُها الوحشيّ ، نبضُها المكبوتْ
ذرو على وجهى دقيقَ دفئها ..
مزَقاً من ورقات التُوتْ .
شرع فى العيون صولجانها المكسوّ بالصدأ
فى المقاهى ترفع الصوت ، وتحكى عن فضائح البيوت !
ـ فى آخر العمرِ ، تصير الأذنُ عادةً ..
سلّة مهملات .. !

***

(جوارب السيدة المرتخية
ظلت تثير السخرية
وهى تسير فى الطريق .
وحين شدتها : تمزقت ..
فانفجر الضحك ، ووارت وجهها مستخذية .
وهكذا أسقطها الصائد فى شباك سيارته المفتوحة
فارتبكت وهى تسوّى شعرها الطليق
وأشرقت بالبسمات الباكية !)

***

لقد فقدتُ مقعدى .. قبيل أن يرتفع الستار
وانكسرت فى داخلى الرغبة فى استرداده ، الرغبةُ فى الشجار
فكل شىء يرتخى فى لحظة التأهب المرتقبة
وتعبث الأيدى بأزرار قميصها المذّهبة
وتنطفى فقّاعةُ السخط .. ببسمة اعتذار !
شيئاً فشيئاً .. غاب عن قلبىَ خيطُ الضوء !
واللحظة الملتهبة !
والنشوةُ الأولى التى تشدُّ الظهر ..
حين يدق سمعَنا إيقاعُ خطو إمراةٍ مقتربة !
وضحكة العذراء عندما يرشها رذاذُ البحر !
والألم الذى يهصرنا لطفلةٍ عرجاء !
والدفء فى استغراق كهل جالس ، يحل فى هدوء ..
مسابقات الكلمات .. !!

***

رءوسنا تسقط .. لا يسندها ..
إلاّ حوافّ الياقة المنتصبة !
فارحم عذابى أيها الألم ..
واسند حطامىَ المنهار .

(١٩٦٧)

بكائية الليل والظهيرة

— ١ —

فى كل ليل ..
تخلع الذكرى ملابسها المغبَّرة القديمةَ ،
تستحم برشرشات الضوء ؛ تغسل فيه ، وعثاء الطريقِ
وتسترد نضارةَ الألوان .. والمرحَ القديمْ .
نديانةً .. كالظلِّ ، تخلع خُفَّها المبلولَ ،
تستلقى جوارى فى الظلام ؛ تضىء بشرتُها :
برائحة التوغل فى الحقولِ ..
برعشة القمر المؤرجح فى مرايا النيل ..
بالقطرات تلمع فى منابت شعرها المحلولِ ..
بالنبض الخجولِ .. يرف فى استدفائها ..
باللثغةِ الغنَّاء فى الصوت الرخيمْ
.. وذراعها يلتفُّ : يرتعش التوهج تحت لمستهِ .
وتقلع آخرُ السفن المقدسة المضيئة من مرافئها ؛
تشق النهر ؛ تنثر ما تبقى من رمادى :
فوق أذرعة الخريف البائسات .. فتكتسى ،

فوق الشفاه اليابسات .. فترتوى ،
فوق المروج .. فتنطوى فى الليلِ موسيقى الجنادبِ ،
فى الحظائر .. يهدأ المُهر الحرونْ ،
على مناقير الطيور .. فتطعم الأفراخ من توت الغناء الحلو
فى عقم السماء .. فتنبض البشرى ، وتنعقد الغيوم .

***

يا دقة الساعاتْ
هل فاتنا .. مافات ؟
ونحن مازلنا ..
أشباحَ أمنيَّات
فى مجلس الأموات !؟

***

— ٢ —

فاض النهارُ بنا ، فمزق عن تصوفُنا معاطفَنا ،
وألقانا على أعتاب مملكة التميمة ، والذباب يطنُّ ،
والكلماتُ : أقداحٌ مكسَّرةُ الحواف ..
إذا لثمناها .. تجرَّحت الرؤى !
والصمت : قضبان محمَّاةٌ على وهج البكاء .
(فاض الاناء ، وعاملُ البرْق الصغيرُ يدقّ باب [illegible]ت ؛

« ـــ آه » وتسقطُ الشمسُ الصغيرة عن رداء النوم
تبكى المرأةُ الأفعى على كتف العشيقِ ،
وتستزيد من البكائيات ، تلقم صدرَها العارى يديه ..
ـــ لعله يبنىْ بها بعد الحداد ! ـــ
تدير عينيها اللتين تندَّتا .. فأذابتا بقع الطلاء ؟)

°°°

كان الطريق يدير لحنَ الموتِ ـــ كان جهنمىَّ الصوت ـــ :
فوق شرائط التسجيل ..
فى أسلاك هاتفهِ المحنَّكِ ..
فى صرير الباب من صدأ الغوايةِ ..
فى أزيز مراوح الصيف الكبيرةِ ..
فى هدير محرِّكات « الحافلات » ..
وفى شجار النسوة السوقىِّ فى الشرفاتِ ..
فى سأم المصاعدِ ..
فى صدى أجراس إطفائيةٍ تعدو .. مصلصلة النداء .
(.. كونى إذن ما شئتِ :
ساقطةً تدور على مواخير الموانىءِ ،
وجه راهبة تضاجع صورة العذراء ،
أمّاً تأكل الأطفالَ ،

كونى أى شىءٍ ـــ فيه نغمس خبزنا الحجرىَّ ـــ ملتهب الدماء !)

°°°

ندمُ الغبار يلح فوق وجوهنا ،
ونلوذ بالجدران نحفر فوقها أسماءنا .. لكنها تتفتت !
الجدران وهمٌ ..
والرجالُ الملصقون على مساحة صفحة الاعلانِ ،
والصورُ الثمينة فى المعارض ، والنقوش على المعابدِ ،
والوسامُ العسكرىُّ لأنبل الشهداء ،
والزهو الذى يندسُّ فى رحم النساء .
(.. تلك المرارة :
سمت جلسات شاى العصر ..
سمت انتعاشتنا بلسع الماء فى حمَّامنا الصيفى ـــ
سمت البراءة فى تساؤل طفلنا من أين جاء !)

°°°

يا آخر الدقات
قولى لنا .. من مات .
كى نحتسى دَمَهُ
ونختم السهرات

بلحمه نقتات !

٭٭٭

— ٣ —

ماذا تخبىء فى حقيبتك العتيقة .. أيها الوجهُ الصفيق
أشهادة الميلاد ؟
أم صكّ الوفاة ؟
أم التيمة تطرد الأشباح فى البيت العتيق ؟
ماذا تخبىء أيها الوجه الصفيق ؟!
ماذا تخبىء أيها الوجه الصفيق ؟!

(١٩٦٦)

أشياء تحدث فى الليل

« إلى صلاح حسين .. »

رخاوةُ النعاس تغمر المسافرين فى قطار الليلْ .
.. وفى حقول قريةٍ بعيدةْ
شق السكون — فجأةً — عُواءُ ذئبْ
وانعقد الحليبُ فى الضروعْ
وانطلق رصاصةٌ :
فكفّت الأشياءُ — بعدها — عن الوجيب ..
هنيهةً ، ثم استعادتْ نبضَها الرتيب ..
وكانت الليلةُ .. لا تزال مقمرة !
(كان النشيدُ الوطنيُّ يملأ المذياع منهياً برامج المساءْ
وكانت الأضواءُ تنطفى ..
والطرقات تلبس الجواربَ السوداء
وتغمر الظلالُ روحَ القاهرة .)
والدمُ كان ساخناً يلوِّث القضبانْ
هذا دمُ الشمس التى ستشرق ، الشمس التى ستغرب ،
الشمس التى تأكلها الديدان !

دمُ القتيل أحمر اللونِ ،
دم القتيل أخضر الشعاعْ
خيطٌ عليه تُنشر الدموع .. كى تجفَّ فى أشعةِ الصبح
(وكان مبنى الاتحاد صامتاً .. منطفىءَ الأضواءْ
تسرى إليه من عبير « هيلتونَ القريبْ ..
أغنيةٌ طروب !)
وكان وجهه النبيلُ مصحفاً عليه يُقسم الجياع
وكانت الذراعْ ..
فارعةً ، كأن محراثاً يشق الأرضَ !
كانت الذراعْ ..
ضامرةً .. كبذرة القمح
ضامرةً كالسِّنَّةِ الأولى التى تنبتُ فى فم الرضيع !
(وكانت المطابعُ السوداءُ تُلقى الصحفَ .. البيضاء
وصاحبان فى ترام العودةِ الكسولْ
يختصمان فى نتائج الكرةْ .
وفى طريق الهَرَم الطويلْ .
تبادلت سيارتان ـــ كادتا فى الليل أن تصطدما ـــ
السِّباب !)

°°°

وفى الصباح ، والنشيدُ الوطنىُّ يملأ الأسماعْ
كان فَرَاشُ الحقل يبدأ النشيجْ
وكانت الأصواتُ فى القُرى .. جنائزيةَ الايقاع
ورحلةُ الموال فى الضلوع تفرد القلوع :
« أدهم مقتول على كل المروج »
« أدهم مقتول على الأرض المشاع »
... ...
وكان وجهه النبيل مصحفا ..
عليه يقسم الجياع !

العشاء الأخير

بكائية :

أعطنى القدرة حتى ابتسم ..
عندما ينغرس الخنجرُ فى صدر المَرَحْ
ويدب الموت ، كالقنفذ ، فى ظل الجدار
حاملاً مبخرة الرعب لأحداق الصغار .
أعطنى القدرة .. حتى لا أموت .
منهكٌ قلبى من الطرق على كلِ البيوت
علّنى فى أعين الموتى أرى ظلَّ ندم !
فأرى الصمت .. كعصفورٍ صغير
ينقر العينين والقلبَ ، ويعوى ..
فى ثنايا كلِّ فم !

— ١ —

« الرياحُ » اختبأت فى القبو ؛ حتى تستريحْ ..
.. فيه من أرجحة الأجساد فوق المشنقة .

ووقفنا نحرس الباب ، ونحمى الأرْوقة
بينما خيلُ المماليكِ تدق الأرض بالخطو الجَموح
يقتفون الأثرا
يسألون الدربَ عن خطوة ريح فيه ؛ عن أية ريح ! .
فنغض البصرا !
ومضوا ، والسنبكُ المجنون يهوى ، فيصب الشررا
وتواروا فى الحوارى الضيقة .
.. نحن عدنا نحمل البشرى لها
وهتفنا باسمها
وهززنا كتفيها ، عبثا ..
وتدلت رأسها فى راحتينا .. ميتة !
نحن كنا نحرس الباب ، ونحمى .. اللافتة
وهى — تعويذتُنا — لم نحمها !

— ٢ —

الخيولُ المسرجة . !
صهلت ، لكن هل الفرسان فرسانٌ كما كانوا .. غدا ؟
والمهاميزُ التى تحملها الأقدام .. غاصت فى القلوب !
وسيوفٌ ثلمت ..
فقد استأجرها النخّاسُ .. تحمى هودجه !

وسيوفٌ قنعت أن تتدلى عند الاستعراض .. زينة !
وحمائل ..
حملتها فى دياجى الليل أضلاعُ المقاصل
ودفنّا نبلَها المقهور فى عام البكاء .
.. شبحُ الفرسان ما زال على وجه المدينة
صامتاً يأتى إذا جاء المساء
صامتاً ينفض أطراف الرداء
ويمد الجسدا ..
فيمد الخوفُ فى الليل يدا !
ثم يمضى ، يحمل الأكفان ، يسرى فى الدروب
يحمل الأكفانَ أثوابَ ركوب !
والمهاميز التى تحملها الأقوام .. غاصت فى القلوب !

— ٣ —

التحيات « مساء الموت » ياقلبى
فلا تلق التحية

— من ترى ماتَ ؟
— أنا ..
— أنت !
— أجل .

— أنتَ لا تملك يوماً أن تموتْ .
— الحماماتُ لَوتْ أعناقها ..
والتوى حتى لسانى بالرِّطانْ
— أنت لا تعرف من أنتَ ..
— أنا :
منذ أن مات أبى ..
كل من تعشقه أمى الثريَّة ..
كل من تعشقه أمى : أبٌ لى فى العماد !
— ربما « أحمس » ربّتْهُ امرأةْ .
— .. ذَهَبُ الشمس العجوز انصهرا
وهوى فوق نفايات الثرى
وأنا أبكى على تلِّ الرماد !
يفتح المخلبُ أجفانَ العيون
لترى .. لكن تُرى ماذا تَرَى ؟
(ساعة الحائط فى معبد « هاتور » .. انتهت دقاتُها
وانتهت « طروادة » البكرُ .. على وهم الحصان !)
— .. أنا « أوزوريس » صافحتُ القمر
كنتُ ضيفاً ومضيفاً فى الوليمة
حين أجلستُ لرأس المائدة
وأحاط الحرسُ الأسودُ بى

فتطلعت إلى وجه أخى ..
فتغاضت عينُه .. مرتعدة !
أنا أوزوريس ، واسيتُ القمر
وتصفحتُ الوجوه ..
وتنبأتُ بما كان . وما سوف يكون ؟
فكسرتُ الخبزَ ، حين امتلأت كأسى من الخمر القديمة
قلت : يا اخوةُ ، هذا جسدى .. فالتهموه
ودمى هذا حلالٌ .. فاجرعوه » !
خبَّأ المصباحُ عينيه .. بأهداب جناحيه
لكى تخفى الجريمة
وتثنَّى الضوءُ من حدِّ الخناجر !
ـــ ربما أحياكَ يوماً دمعُ « ايزيس » المقدّس
غير أنا لم نعد ننجب ايزيس جديدة
لم نعد نصغى الى صوت النشيج
ثَقُلَتْ آذانُنا منذ غرقنا فى الضجيج
لم نعد نسمع إلا .. الطلقات !
(يفرض الرعبُ الطمأنينةَ فى ظل المسدَّسْ ..)
ـــ الطمأنينةُ فى ظل الحداد ؟!
ـــ سيدى .. نحن انزلقنا من ظهور الأمهات
بيد تضغط ثقب الجرح ،
..

والأخرى على حرف الزناد !

ـ ٤ ـ

عندما يبتلع (الكورنيشُ) أضواءَ الغروب
تسعل الظلمةُ فيه والبرودة
يحمل الجوعُ إلى العار .. وليدَه
كلمات ..
ثم تنسلُّ من البَرْدِ .. لدفءِ العربات .
والمصابيحُ : شظايا قمرٍ .. كان يضيء
حطمته قبضةُ الطاووس فوق الطرقات
ثم أهدته إلى النسوة .. كى يصلبنه فوق الصدور .
يتباهين به .. وهو رفات !
كلمات .. كلمات ..
ثم تنسل من البرد لدفء العربات .
وأنا « يوسفُ » محبوبُ « زليخا »
عندما جئتُ إلى قصر العزيز
لم أكن أملك إلا .. قمرا
(قمراً كان لقلبى مدفأة)
ولكم جاهدتُ كى أخفيَه عن أعين الحرّاس ،

عن كلِّ العيون الصدئة
.. كان فى الليل يضىء !
حملونى معه للسجن حتى أطفئه
تركونى جائعاً بضع ليال ..
تركونى جائعاً ..
فتراءى القمرُ الشاحب ــ فى كفىَّ ــ كعكة !
وإلى الآن .. بحلقى ما تزال ..
قطعةٌ من حزنه الأشيب .. تُدمينى كشوكة !

* * *

أعطنى القدرةَ حتى أبتسم ..
فشعاع الشمس يهوى كخيوط العنكبوت
والقناديل تموت
قدمى تلتمس السُّلَّمة الأولى لكى أصعد فوقا
ويدى تلتمس الحاجزَ إذ أخشى السقوط
كيف أبقى ؟
عفن الموتى ؛ وأطياب الحنوط
نكهة تكسو فِناءَ البيت ، تسرى فى دمى عرقاً فعرقاً .
.. منهكٌ قلبى من الظلمةِ ، إنى لا أرى
آه لو لم ألتهمه ــ القمر الشاحب ــ لو ..

ربما نوَّر فى الظلمة برهة .
غير أنى كنتُ جائع
وأنا الآن فقدتُ القمرا .
... ...
جائع يا قلبى المعروض فى سوق الرياء
جائع .. حتى العياء
ما الذى آكله الآن إذن ..
كى لا أموت ؟

(ديسمبر ١٩٦٣)

حديث خاص مع ابى موسى الأشعرى

[حاذيت خطو الله ، لا أمامه ، لا خلفه ...]

— ١ —

.. إطارُ سيارته ملوثٌ بالدمّ !
سارَ .. ولم يهتمّ !!
كنتُ أنا المشاهدَ الوحيدْ
لكننى .. فرشتُ فوق الجسد الملقى جريدتى اليوميَّةْ
وحين أقْبَلَ الرجالُ من بعيد ..
مزقت هذا الرقم المكتوب فى وريقةٍ مطويّةْ
وسرتُ عنهم .. ما فتحتُ الفمّ !!

°°°

(حاربتُ فى حربهما
وعندما رأيتُ كلاً منهما .. مُتَّهما
خلعتُ كلاً منهما !
كى يسترد المؤمنون الرأىَ والبيعة
.. لكنهم لم يدركوا الخدعة !)

°°°

حين دلفتُ داخل المقهى
جرَّدنى النادلُ من ثيابى
جردتُه بنظرةِ ارتياب
بادلتُه الكُرْها !
لكننى منحتُه القرشَ : فزيَّن الوجها ..
ببسمةٍ .. كلبيَّةٍ .. بلْها ..
ثم رسمتُ وجهه الجديدَ .. فوق علبةِ الثقابِ !

— ٢ —

رأيتُهم ينحدرون فى طريق النهرْ ..
لكى يشاهدوا عروسَ النيل — عند الموت — فى جَلْوتها الأخيرةْ
وانخرطوا فى الصلوات والبكاءْ .
وجئتُ .. بعد أن تلاشت الفقاقيعُ ، وعادت الزوارقُ الصغيرة
رأيتُهم فى حلقاتِ البيع والشراءْ
يقايضون الحزنَ بالشواءْ !
.. تقول لى الأسماكْ
تقول لى عيونُها الميِّتة القريرة :
ان طعامها الأخيرَ .. كان لحماً بشريّاً ..

قبل أن تجرفها الشبّاكُ !
يقول لى الماءُ الحبيسُ فى زجاج الدورقِ اللمّاعْ
ان كلينا .. يتبادلان الابتلاعْ !
تقول لى تحنيطةُ التمساح فوق باب المنزل المقابلْ
إنَ عظامَ طفلةٍ .. كانت فراشَ نومه فى القاع !!

***

(خلعتُ خاتمى .. وسيدى .
فهل تُرى أحصي لكِ الشاماتِ فى يدى
لتعرفينى حين تُقبلين فى غدٍ
وتغسلين جسدى
من رَغَواتِ الزَّبَد ؟!)

***

فى ليلةِ الوفاءْ ..
رأيتُها ــ فيما يرى النائمُ ــ مُهرةً كسلى
يسرجُها الحوذىُّ فى مركبةِ الكراءْ
يهوى عليها بالسياطِ ، وهى لا تشكو .. ولا تسيرْ !
وعندما ثرتُ .. وأغلظتُ له القولا ..
دارت برأسها ..
دارت بعينيها الجميلتينْ ..

رأيتُ فى العينين : زهرتينْ
تنتظران قبلةً . من نحلةٍ هيضَ جناحُها .. فلم تَعُد تطيرْ !
.. رأيتُها ــ فيما يرى النائم ــ طفلةً .. حبلى !
رأيتُها .. ظلا !
وفى الصباح : حينما شاهدتُها مشدودةً إلى الشراعْ
ابتَسَمَتْ ، ولَوَّحَتْ لى بالذراعْ
لكننى : عَثُرتُ فى سيرى !
رأيتُنى .. غيرى !
وعندما نهضتُ : ألقيتُ عليها نظرةَ الوداعْ
كأننى لم أرها قبلا !
فأطرَقَتْ خجلى ..
ولم تَقُل إنى رأيتُها .. ليلا !

ــ ٣ ــ

خرجتُ فى الصباح .. لم أحمل سوى سجائرى
دسستُها فى جيب سترتى الرماديّة
فهى الوحيدة التى تمنحنى الحبَّ .. بلا مقابل !

***

رؤيا :

(ويكون عامٌ .. فيه تحترق السنابل والضروع
تنمو حوافرُنا — مع اللعناتِ — من ظمأٍ وجوعْ
يتزاحفُ الأطفالُ فى لعق الثرى !
ينمو صَديدُ الصمغ فى الأفواهِ ،
فى هدبِ العيون .. فلا ترى !
تتساقط الأقراطُ من آذان عذراوات مصرْ !
ويموت ثديُ الأمِّ .. تنهضُ فى الكرى
تطهو — على نيرانها — الطفلَ الرضيع !!)

***

حاذيت خطو الله ؛ لا أمامهُ .. ولا خَلْفَهْ
عرفتُ أن كلمتى أُنَفَهْ ..
من أن تنال سيفَه أو ذَهَبَهْ .
(حين رأتْ عيناى ما تحت الثيابِ : لم يَعُدْ يثيرنى !)
قلَّبتُ — حيناً — وَجْهَىْ العُمْلَةْ
حتى إذا ما انْقَضَتَ المهلةْ
ألقيتها فى البئر .. دون جلبَة !
وهكذا .. فقدتُ حتى حِلْمَه وغَضَبَهْ .
(عيناكِ : لحظتا شُروقْ
أرشف قهوتى الصباحيَّةَ من بُنّهما المحروقْ

وأقرأ الطالعْ !
وفى سكون المغربِ الوادعْ
عيناك ، يا حبيبتى ، شُجيرتا برقوقْ
تجلس فى ظلِّهما الشمسُ ، وترفو ثوبها المفتوقْ
عن فخذها الناصع !)

– ٤ –

.. وستهبطين على الجموعْ
وترفرفين .. فلا تراك عيونُهم .. خلف الدموعْ
تتوقفين على السيوف الواقفةْ
تتسمَّعين الهمهماتِ الواجفةْ
وسترحلين بلا رجوعْ !
... ...
ويكون جوعْ !
ويكون جوعْ !

(مارس ١٩٦٧)

من مذكرات المتنبى

(فى مصر)

٥ ٥ أكرهُ لون الخمر فى القنّينة
لكننى أدمنتها .. استشفاءا .
لاننى منذ أتيتُ هذه المدينة
وصرتُ فى القصور ببغاءا :
عرفتُ فيها الداءا !

٥ ٥ أمثل ساعة الضحى بين يدَىْ كافور
ليطمئن قلبه ؛ فما يزال طيره المأسور
لا يترك السجن ولا يطير !
أبصر تلك الشفة المثقوبة
ووجهه المسودَّ ، والرجولة المسلوبة
.. أبكى على العروبة !

٥ ٥ يومىء ؛ يستنشدنى : أنشده عن سيفه الشجاع
وسيفه فى غمده .. يأكله الصدأ !
وعندما يسقط جفناه الثقيلان ؛ وينكفىء .
أسير مثقل الخطى فى ردهات القصر

أبصر أهل مصر ..
ينتظرونه .. ليرفعوا إليه المظلمات والرقاع !
.. جاريتى من حلب ، تسألنى « متى نعود ؟ »
قلت : الجنود يملأون نقط الحدود
ما بيننا وبين سيف الدولة .
قالت : سئمت من مصر ، ومن رخاوة الركود
فقلت : قد سئمتُ — مثلك — القيام والقعود
بين يدى أميرها الأبلة .
لعنت كافورا
ونمتُ مقهورا ..

٥ ٥ « خَوْلَةُ » تلك البدويّة الشَّموس
لقيتها بالقرب من « أريحا »
سويعةً ، ثم افترقنا دون أن نبوحا
لكنها كل مساءٍ فى خواطرى تجوس
يفترُّ بالشوق وبالعتاب ثغرُها العبوس
أشم وجهها الصبوحا
أضم صدرها الجموحا !
... ...
سألتُ عنها القادمين فى القوافلْ

فأخبرونى أنها ظلت بسيفها تقاتلْ ..
فى الليل تجارَ الرقيق عن خبائها
حين أغاروا ، ثم غادروا شقيقها ذبيحا
والأبَ عاجزا كسيحا
واختطفوها ، بينما الجيران يرنون من المنازل
يرتعدون جسدا وروحا
لا يجرؤون أن يغيثوا سيفها الطريحا !
... ...

(ساءلنى كافور عن حزنى
فقلت إنها تعيش الآن فى بيزنطة
شريدةً .. كالقطة
تصيح « كافوراه .. كافوراه .. »
فصاح فى غلامه أن يشترى جاريةً روميَّة
تُجلد كى تصيح « واروماه .. واروماه .. »
.. لكى يكون العين بالعين
والسنُّ بالسنِّ !)

* * فى الليل ؛ فى حضرة كافور ؛ أصابنى السأم
فى جلستى نمتُ .. ولم أنم
حلمت لحظةً بكا

وجندكَ الشجعان يهتفون : سيف الدولة .
وأنت شمس تختفى فى هالة الغبار عند الجولة
ممتطياً جوادك الأشهب ، شاهراً حسامك الطويل المهلكا
تصرخ فى وجه جنود الروم
بصيحة الحرب ، فتسقط العيونُ فى الحلقوم !
تخوض ، لا تبقى لهم إلى النجاة مسلكا
تهوى ، فلا غير الدماء والبكا
ثم تعود باسماً .. ومنهكا
والصبية الصغار يهتفون فى حلب :
« يا منقذ العرب »
« يا منقذ العرب »
حين تعود .. باسماً .. ومنهكا
حلمتُ لحظةً بكا
حين غفوتُ
لكننى حين صحوتُ :
وجدت هذا السيد الرخوا
تصدر البهوا
يقص فى ندمانة عن سيفه الصارم
وسيفه فى غمده يأكله الصدأ !
وعندما يسقط جفناه الثقيلان ، وينكفىء ..

يبتسم الخادم .. !

.. تسألني جاريتى أن أكترى للبيت حرّاسا

فقد طغى اللصوص فى مصر .. بلا رادع

فقلت : هذا سيفىَ القاطع

ضعيه خلف الباب . متراسا !

(ما حاجتى للسيف مشهورا

ما دمت قد جاورت كافورا ؟)

.. « عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ ؟

بما مضى ؟ أم لأرضى فيك تهويد ؟

« نامت نواطير مصر » عن عساكرها

وحاربت بدلاً منها الأناشيد !

ناديت : يا نيل هل تجرى المياه دماً

لكى تفيض ، ويصحو الأهل إن نودوا ؟

« عيد بأية حال عدت ياعيد ؟

(حزيران ١٩٦٨)

تعليق على ما حدث

وردةٌ فى عروة السرَّةِ :
ماذا تلدين الآنَ ؟
طفلاً .. أم جريمةْ ؟
أم تنوحين على بوَّابةِ القدس القديمة ؟
عادت الخيلُ من المشرق ،
عاد (الحسنُ الأعْصَمُ) والموتُ المغيْر
بالرداءِ الأرجوانىِّ ، وبالوجه اللصوصىِّ ،
وبالسيف الأجيرْ
فانظرى تمثالَه الواقفَ فى الميدانِ ..
(يهتزُّ مع الريح . !)
انظرى من فرجةِ الشبّاك :
أيدى صبْيَةٍ مقطوعةٌ ..
مرفوعةٌ .. فوق السّنانْ
(.. مُرْدِفاً زوجتَه الحُبْلى على ظهر الحصانْ)
أنظرى خيطَ الدمِ القانى على الأرضِ :
« هنا مَرَّ .. هنا »

فانفقأت تحت خُطى الجندِ ..
عيونُ الماءِ ،
واستلقت على التربةِ .. قاماتُ السنابلْ .
آهِ .. ها نحن جياعُ الأرضِ نصطفُّ ..
لكى يُلْقِى لنا عهدَ الأمانْ .
ينقش السكةَ باسمِ المَلكِ الغالبِ ،
يُلقى خطبةَ الجمعةِ باسم الملكِ الغالبِ ،
يَرْقى منبرَ المسجدِ ..
بالسيفِ الذى يبقُرُ أحشاءَ الحواملْ .

° ° °

تلدينَ الآن مَنْ يحبو ..
فلا تسنده الأيدى ،
ومن يمشي .. فلا يرفع عينيه إلى الناسِ ،
ومن يخطفه النخّاسُ :
قد يصبح مملوكاً يلوطون به فى القصرِ ،
يُلقون به فى ساحةِ الحربِ ..
لقاءَ النصرِ ،

هذا قدرُ المهزومِ :
لا أرضَ .. ولا مال .
ولا بيتَ يردُّ البابَ فيه ..
دون أن يطرقه جابٍ ..
وجنديٌّ رأى زوجتَه الحسناءَ فى البيتِ المقابلْ)
أنظرى أُمّتكِ الأولى العظيمة
أصبحت : شرذمةً من جثثِ القتلى ،
وشحّاذين يَسْتَجْدون عطفَ السيفِ ،
والمالَ الذى ينثره الغازى ..
فَيَهْوى ما تبقّى من رجالٍ ..
وأرومةْ .

أنظرى ..
لا تفزعى من جرعة الخزىِ ،
انظرى ..
حتى تقيئى ما بأحشائكِ ..
من دفءِ الأمومة .

° ° °

تُقْفِر الأسواقُ يومينِ ..
وتعتاد على « النقد » الجديدْ
.

تشتكى الأضلاعُ يومين ..
وتعتاد على السوطِ الجديدْ
يسكت المذياعُ يومين ..
ويعتاد على الصوت الجديدْ
وأنا منتظرُ .. جنب فراشكْ
جالسٌ أرقب فى حمّى ارتعاشكْ —
صرخةَ الطفلِ الذى يفتح عينيه ..
على مرأى الجنود !

(يوليو ١٩٧٠)

فقرات من كتاب الموت

— ١ —

كلَّ صباحٍ ..
أفتح الصنبورَ فى إرهاقْ
مغتسلاً فى مائهِ الرقراقْ
فيسقط الماءُ على يدى .. دَمًا !
... ...
وعندما ..
أجلس للطعام .. مُرغما :
أبصر فى دوائر الأطباقْ
جماجما ..
جماجما ..
مفغورةَ الأفواه والأحداق !!

— ٢ —

أحفظ رأسى فى الخزائن الحديديّةْ

وعندما أبدأ رحلتى النهاريّة
أحمل فى مكانها .. مذياعا !
(أنشر حولىَ البياناتِ الحماسيّةَ .. والصدَاعا)
وبعد أن أعود فى ختام جولتى المسائيّة
أحمل فى مكان رأسى الحقيقيّة :
.. قنّينةَ الخمرِ الزجاجيّة !

– ٣ –

أعودُ مخموراً إلى بيتىَ ..
فى الليلِ الأخيرْ
يوقفُنى الشرْطىُّ فى الشارعِ .. للشُّبْهة
يوقفُنى .. برهة !
وبعد أن أرشُوَهُ .. أواصل المسير !
... ...
توقفنى المرأةُ ..
فى استنادها المثير
على عمود الضوءِ :
(كانت مصلقاتُ « الفَتْح » و « الجَبْهَةْ » ..
تملأ خلفَ ظهرها العمودا !)

تسألنى لَفافةٌ :
(لِمْ يترك الشرطىّ ..
واحدةً من تبغها الليلىّ
تسألنى إن كنتُ أمضى ليلتى .. وحيدا
وعندما أرفع وجهى نحوها ::
سعيدا
أبصر خلف ظهرها : شهيدا
معلّقا على الحائطِ ، ناصعَ الجبهة
تغوص عيناهُ .. كنصْلَيْنِ رصاصيَّيْن
أصرخُ من رهافة الحدَّين
.. أمضى بلا وجهة !!

– ٤ –

فاجأنى الخريفُ فى نيسان
وطائرُ السمَّان ..
حطَّ على شواطىء البحر الشماليّة
طلبتُ من تحبُه نفسى .. قبيل النومْ
فلم أجدْ .. إلا عذابَ الصوم

طلبتُ من تحبُّه نفسى
(فى الظلّ والشمسِ)
فلم أجد .. نفسى !!
... ...
وها أنا خلفَ النوافذ الزجاجيّة
أرقبُ عند المغرب الشاحبْ :
طائرىَ الغائبْ !

(١٩٦٩)

الحداد يليق بقطر الندى

جوقة :

قَطْرُ الندى .. يا خالْ
مُهْرٌ بلا خَيَّالْ
... ...
قطرُ الندى .. يا عينْ
أميرةُ الوجهين
.. ..

صوت:

كان (خمارويهُ) راقداً على بحيرة الزئبقْ
وكانت المغنّياتُ والبناتُ الحورْ
يطأن فوق المِسْكِ والكافورْ .
والفقراءُ والدراويشُ أمام قصره المُغْلَقْ
ينتظرون الذَهبَ المبدورْ
ينتظرون حفنةً صغيرةً .. من نُورْ .

جوقة :

قطر الندى .. يا عين
أميرةُ الوجهينْ
.. .. ..
قطر الندى ..
قطر الندى ..

صوت:

هودجُها يخترقُ الصحْراءْ
تسبقه الأنباءْ .
أمامها الفُرسانُ ألف ألف
وخلفها الخصْيانُ ألف ألف
تعبر فى سيناء ..

جوقة :

قطر الندى .. يا ليلْ
تسقط تحت الخيلْ
.. ..
قطر الندى .. يا مصرْ
قطر الندى فى الأسْرْ
.. ..

(استمرار):

تعبر فى سيناء
تعبر فى مضارب البَدْوِ ، وفى نضوبِ الماءْ
عند انتصاف الصيفْ .
تحلم بالوصولَ للأرْدُنّْ ..
ترخى أعنَّةَ الخيولِ حول مائهِ ..
تغسلُ وجهَ الحزنْ

جوقة :

قطر الندى .. يا مصر
قطر الندى فى الأسر
قطر الندى ..
قطر الندى ..

الصوت والجوقة :

.. كان (خمارويهُ) راقداً على بحيرة الزئبقْ
فى نومةِ القيلُولةْ .
فمن تُرى ينقذُ هذه الأميرةَ المغلولَةْ ؟
من يا تُرى ينقذها ؟

من ياتُرى ينقذها ؟
بالسيف ..
أو .. بالحيلةْ ؟!

(١٩٦٩)

صفحات من كتاب الصيف والشتاء

١ – حمامة

حين سَرَتْ فى الشارعِ الضوضاءْ
واندفَعَتْ سيارةٌ مجنونة السائقْ
تطلق صوتَ بُوقها الزاعقْ
فى كبدِ الأشياءْ :
تَفَزَّعَتْ حمامةٌ بيضاء
(كانت على تمثالِ نهضةِ مصرْ ..
تَحْلُمُ فى استرخاءْ)
.. ..
طارتْ ، وحطَّتْ فوقَ قُبَّةِ الجامعةِ النحاسْ
لاهثةً ، تلتقط الأنفاسْ
وفجأةً : دندنت الساعةْ
ودقت الأجراسْ
فحلَّقَتْ فى الأفقِ .. مُرتاعةْ !
.. ..

أيتها الحمامةُ التى استقرَّتْ
فوق رأسِ الجسرْ
(وعندما أدار شُرطىُّ المرورِ يَدَهُ ..
ظنته ناطوراً .. يصدُّ الطيرْ
فامتلأتْ رعبا !)
أيتها الحمامةُ التعْبى :
دُورى على قباب هذه المدينةِ الحزينةْ
وأنشدى للموتِ فيها .. والأسى .. والذعرْ
حتى نرى عند قدومِ الفجرْ
جناحَكِ المُلقى ..
على قاعدةِ التمثالِ فى المدينةْ
.. وتعرفين راحةَ السكينة !

٢ – ساق صناعية

فى الفندقِ الذى نزلتُ فيه قبلَ عامْ
شاركنى الغرفةْ
فأغلق الشرفةْ
وعَلَّق (السُّتْرَةَ) فوق المشجب المُقَام

وعندما راى كتابَ (الحربِ والسلامْ)
بين يدىَّ : اربدَّ وجهُهُ ..
ورفَّ جفنُه .. رَفَّةْ
فغالبَ الرجفةْ
وقصَّ عن صَبِيَّةٌ طارحها الغرامْ
وكان عائداً من الحرب .. بلا وسام
فلم تُطِقْ .. ضَعْفَهْ
ولم يجدْ ـــ حين صحا ـــ إلا بقايا الخمرِ والطعام !
.. ..
ثم روى حكايةً عن الدمِ الحرامْ
(.. الصحراءُ لم تُطِقْ رَشْفَةْ ..
فظلَّ فيها ، يشتكى رسغه صَيْفَهْ ..)
وظلَّ يروى القصصَ الحزينةَ الختامْ
حتى تلاشى وجهُهُ
فى سُحُبِ الدخانِ والكلامْ
وعندما تحشرجَ الصوتُ بهِ ، وطالت الوقفةْ
أدرتُ رأسى عنه ..
حتى لا أرى دمعَتَه العَفَّةْ
ومن خلايا جسدى : تفصَّدَ الحزنُ ..

وبلّل المسامْ

.. ..

وحين ظنّ أننى أنام
رأيته يخلع ساقه الصناعية فى الظلام
مُصَعِّداً تنهيدةً ..
قد أحرقَتْ جوفَهْ

٣ – شتاء عاصف

كان (ترامُ الرَّمْلِ) ..
مُنْبَعِجاً ، كامرأةٍ فى أُخرياتِ الحَمْلْ
وكنتُ فى الشارعْ
أرى شتاءَ (الغضبِ الساطعْ)
يكتسح الأوراقَ والمعاطفا
وكانت الأحجارُ فى سكونها الناصعْ
مغسولةً بالمطرِ الذى توقّفا
وكان فى المذياعْ
أغنيةٌ حزينةُ الإيقاعْ
عن (ظالمٍ لاقيتُ منه ما كفى ..)
قد (علّموه كيف يجفو .. فجفا)

جلستُ فوق الشاطىء اليابسْ
وكان موجُ البحرْ
يصفع خدَّ الصخر
وينطوى — حيناً — أمام وجهه العابسْ .
.. وترجعُ الأمواجْ
تنطحه برأسها المُهْتاجْ
ودون أن تَكُفَّ عن صراعها اليائس .. !
ودون أن تَكُفَّ عن صراعها اليائس .. !

مارس ١٩٦٩

تعليق على ماحدث فى مخيم الوحدات

— ١ —

قلتُ لكم مرارا
إن الطوابيرَ التى تمرُّ ..
فى استعراض عيد الفطر والجلاءْ .
(فتهتف النساءُ فى النوافذ انبهارا)
لا تصنع انتصارا .
إن المدافع التى تصطف على الحدود ، فى الصحارى
لا تطلق النيرانَ .. إلا حين تستدير للوراء .
إن الرصاصةَ التى ندفع فيها .. ثمنَ الكسرة والدواء :
لا تقتل الأعداء
لكنها تقتلنا .. إذا رفعنا صوتنا جهارا
تقتلنا ، وتقتل الصغارا !

— ٢ —

قلتُ لكم فى السنة البعيدة

عن خَطَرِ الجندىّْ
عن قلبه الأعمى ، وعن همّته القعيدة
يحرس مَنْ يمنحُه راتبَه الشهرىّْ
وزيّه الرسمىّْ
ليرهبَ الخصومُ بالجعجعةِ الجوفاءِ
والقعقعة الشديدة
لكنه .. إن يَحِن الموتُ ..
فداء الوطن المقهور والعقيدة :
فرَّ من الميدانْ
وحاصرَ السلطانْ
واغتصَبَ الكرسىّْ
وأعلن « الثورةَ » فى المذياع والجريدة !

— ٣ —

قلتُ لكم كثيرا
إن كان لابدّ من هذه الذريّة اللعينة
فليسكنوا الخنادقَ الحصينة
(متخذين من مخافر الحدود .. دُورا)
لو دخل الواحدُ منهم هذه المدينة :

يدخلها .. حسيرا
يلقى سلاحه .. على أبوابها الأمينة
لأنه .. لا يستقيم مَرَحُ الطفل ..
وحكمةُ الأب الرزينة
مع المُسَدّس المدلّى من حزام الخصر ..
فى السُّوقِ ..
وفى مجالس الشورى

* * *

قلتُ لكم ..
لكنكم ..
لم تسمعوا هذا العبثْ
ففاضت النارُ على المخيّمات
وفاضت .. الجثث !
وفاضت الخُوذاتُ والمدرَّعاتْ

(سبتمبر ١٩٧٠)

ميتة عصرية

- ١ -

فتح المذياعَ .. واستلقى !
وكان القدحُ الساخنُ ..
فى وحدته المستغرقةْ .
(.. يدخل الطيفُ الذى يهبط .. بغتةْ
يسكتُ المذياعُ .. سكتةْ ...)
— (موجز الانباءِ) ..

.. ألقت يدُه السيجارةَ المحترقةْ
صرَّت النافذةُ المنغلقة
.. ..
(.. يعبر الغرفةَ :
فوق الحائط الأزرقِ .. صورةْ
ظَلَّ يَجْلُو تحتها خنجرَه .. مبتسما)
.. ..
مَدَّ ساقيهِ ،
وكان الرعبُ فى عينيهِ ..

صار الصوتُ والموتُ
عدواً واحداً
منقسما !

• • •

ظل فى مقعدهِ ..
سار الترامْ
وهو فى مقعدهِ ..
كلَّتْ يدا بائعةِ الخبز الصغيرةْ
وهو فى مقعدهِ ..
كفَّ فحيحُ الصمتِ فى المذياع ،
وانساب « السلام »
وهو فى مقعدهِ ..
— (موجز أنباء الصباحْ)
وهو فى مقعدهِ ..
.. ..
فى يدهِ سيجارةٌ ملتصقةْ
وعلى الحائطِ .. صُورة !!

— ١ —

— من ذلك الهائمُ فى البريّةْ ؟
ينام تحت الشجرِ الملتفِ والقناطر الخيريّة ؟
— مولاى : هذا النيلُ ..
نيلُنا القديمْ !
— أين تُرى يعملُ .. أو يقيمْ ؟
— مولاى :
كنا صبيّةً نندسُّ فى ثيابه الصيفيّة
فكيف لا نَذْكُرُهُ ؟
وهو الذى يُذْكَرُ فى المذياع والقصائد الشعريّة ؟
— هل كان قائدا ؟
— مولاىَ : ليس قائداً .
لكنما السياحُ فى مطالع الأعوامْ
يأتون كى يروه ..
— آهِ .. ويُصَوِّرونه لكى يُشَهِّروا بنا
بوجهه الباكى .. وكُوفيّته القطنية
.. تعالَ كى نودعه فى ملجأ الأيتامْ .
— مولاى :
هكذا تحبُّه الصبايا .. والرعاةُ .. والأغنام

وأمُّ كلثومٍ تغنى له ..

فى وَصْلتها الشهريّة !

— النيلُ !

أين يا تُرى سمعتُ عنه قبل اليومْ ؟!

أليس ذلك الذى ..

كان يضاجعُ العذارى !؟

ويحب الدمْ !؟

— مولاى : قد تساقطت أسنانه فى الفمْ

ولم يَعُدْ يقْوى على الحبِّ .. أو الفروسيّة

— لابد أن يبرز لى أوراقَه الشخصيّة

فهو صَمُوت !

يصادق الرعاعَ ..

يهبط القُرى ..

ويدخل البيوتْ ..

ويحمل العشاقَ فى الزوارق الليليّة

— مولاى ؟ هذا النيلْ .. !!

— لا شأنَ لى بنيلك المُشَرَّد المجهولْ

أريد أن يبرز لى أوراقَه الرسميّة :

شهادة الميلادِ .. والتطعيم .. والتأجيلْ

والموطنِ الأصلىِّ .. والجنسيّة

.. حتى يمارسَ الحريَّة !

— ٣ —

.. ويُلقى المعلمُ مقطوعةَ الدرسِ ،

فى نصف ساعة :

(ستبقى السنابلْ ..

وتبقى البلابلْ ..

تغرِّد فى أرضنا .. فى وداعةْ ..)

ويكتب كلُّ الصغارِ بصدقٍ وطاعةْ :

(ستبقى القنابلْ ..

وتبقى الرسائلْ ..

نُبَلِّغها أهلَنا .. فى بريدِ الإذاعة)

(١٩٧٠)

الوقوف على قدم واحدة !

كادت تقولُ لى « مَنْ أنتْ ؟ »
.. ..
(.. العقربُ الأسودُ كان يلدغُ الشمسَ ..
وعيناها الشهيّتان تلمعان !)
ـــ آأنتَ ؟!
لكنّى رددتُ بابَ وجهى .. واستكنتْ
(.. عرفتُ أنّها ..
تنسى حزامَ خصرها .
فى العرباتِ الفارهة !

* * *

أسقطُ فى أنيابِ اللحظاتِ الدنسةْ
أتشاغلُ بالرشفةِ من كُوب الصمت المكسور
بمطاردةِ فَرَاشِ الوهمِ المخمور
أتلاشى فى الخيطِ الواهنْ :
ما بين شرُوعِ الخنجرِ .. والرقَبَةْ
ما بين القدمِ العارية وبين الصحراء الملتهبة

ما بين الطلقةِ .. والعصفورْ !

* * *

يهتزُّ قرطُها الطويلُ ..
يراقصُ ارتعاشَ ظلّه ..
على تَلَفُّتَاتِ العُنُقِ الجميلْ
وعندما تلفُظُ بذْرَ الفاكهةْ
وتطفىءُ التبغةَ فى المنفضةِ العتيقةِ الطرازْ
تقول عيناها : استرح !
والشفتان .. شوكتان !!

* * *

(تبقَينَ أنتِ : شبَحاً يفصلُ بين الأخوين
وعندما يفورُ كأسُ الجعةِ المملوءُ ..
فى يدِ الكبيرْ :
يقتلُكِ المقتولُ مرتين !
أتأذنين لى بمعطفى
أُخفى بهِ ..
عورةَ هذا القمرِ الغارقِ فى البحيرة
عورةَ هذا المتسول الأمِير

وهو يحاورُ الظلالَ من شُجيرةٍ إلى شجيرة
يطالعُ الكفَّ لعصفورٍ مُكَسَّرِ الساقين
يلقط حَبَّةَ العينين
لأنه صَدَّقَ — ذاتَ ليلةٍ مَضَت —
عطاءَ فمكَ الصغيرْ ..
عطاءَ حُلمكِ القصير ..

ربـــاب

— ١ —

جلستُنا الأولى : وعيناكِ المليئتانِ بالفضولْ ..
تفتّشان عن بدايةِ الحديثِ ،
وابتسامةٌ خجولْ ..
فى شفتيك العذبتين ، وارتباكُنا يطولْ ..
فى لحظات الصمتِ والظمأْ .
نقرتُ فوق مسند المقعدِ
قلتُ ما يقال عن رداءة الطقسِ ،
تسمَّرتْ عيناى فى استدارة الياقةِ
فى معطفكِ الجميلْ .
وكان صوتُك المغنِّى يتحسس الطريقَ فى شراييني ،
ويمسح الصدأْ
وكنتُ ألوى فى رباط عُنُقى ،
أرْبتُ ظهرَ قلقى ،
أمسح خيطَ العَرَقِ الضئيلْ .
العصر : شرخاً فى زجاج البابِ ،

ون الزخرف المنقوشِ فى مفارش الموائدَ ،
الوردةَ .. وهى تنحنى فى الكوب ..
شفُّها الذبولُ .

.. ..

ليلتّها : عيناكِ هاتان المليئتان بالفضولْ
طاردتانى لحظةً بلحظةٍ ..
فى دورانِ السلّم الطويلْ
وفى سريرى ظلتا تغنّيان آخرَ الليلِ
وحين ضاق الصدرُ بالحنين .. وامتلأْ
رفرفتا حولى
فقلتُ .. قلتُ لهما كلَّ الذى أردتُ أن أقولْ ..

• • •

(.. كنا جارين طويلا
وخليج عيونٍ خضرٍ ترسو فيه
أشرعةُ الشوقِ
قلبى ما كاد يشبُّ عن الطوق
حتى أبْحَرَ فى عينيها الواسعتين ..
برحلته الأولى
.. لكنى أشهدها ــ الليلةَ ــ تتكىءُ عليْهِ ..

كما كانت تتكىءُ عليّ !
شبك فى إصبعها خاتمَه الذهبىّ
وتمرُّ على جبهته بأناملها الرخصة .

.. .. ..

هل تهجرنى الأحزان ؟
وأنا أشهد فاتنتى تستدفىء ..
فى أحضان القرصانْ ؟)

- ٢ -

لمح وجهَكِ المضىءَ .. يا ربابْ
فى مستطيل النورِ عندما يشعُّ ..
فى انفراج بابْ
فى وَهَجِ اللفافةِ الأخيرةْ
فى لمعة المنافض المزوَّقةْ
فى لمسات اللوحة المعلَّقةْ
فى دورةِ الفَرَاشِ فى السقفِ ،
وفى انغلاقة الكتابْ
فى ذوبان الثلج فى الأكوابْ

فى رنّة الملاعق الصغيرةْ
فى صمتة المذياع برهةً قصيرةْ
فى ثَنَيَات الظّل فى الثيابْ
فى غبشِ النوافذ الصامتِ ..
بعد أن ينقشع الضباب .

° ° °

(.. بالريح المقهورةْ
بالأمكنةِ المهجورةْ
بسنى الحبِّ الغاربْ
بالقمر الشاحبْ
وبأعوامى الستة عشرْ
وبخصلة شعْرْ :
أقسم ألا يسقط قلبى فى ..
شَرَكِ الهدب الأسودْ .
ألا أفتح ــ يوماً هذا البابَ الموصد !)

– ٣ –

كيف ضعفتُ فى نهاية المطاف ؟

وارتحت فى عينيك من عبئى ؟
وكل شىءٍ حولنا يُملى علينا أن نخاف !؟
.. لكننى أنزع قلبى من نعومة البدءِ
ومن ليونة الدفءِ ..
وأحتمى ــ كالسلحفاة ــ بالغلاف !!

فصل من قصة حب

لها حقيبةٌ مدلاّة ، وشَعْر غَجَرى !
(عرفتُ عنها القصص الكثيرة :
على أريكة القطارْ ..
ضاجعها اثنانِ ،
وخلف ساتر الغارات فى الميدانِ .. فى الظهيرة .
.. وضاجَعَتْها امرأةٌ على البلاج الذهبىّ
وجسمها الخارج من محارة البحرِ ..
مُنَدّى باللألىء الصغيرة !)

° ° °

حين التقينا : لم تسلْ من أنتَ ..
أو من أين !؟
وقبلّتنى خلسةً ونحن فى المترو ..

مُحاصرَيْن .. واقفينْ !
وقبلتنى وأنا أُخرج مفتاحى ..
أمام غرفتى الفقيرة !
وقبلتنى .. حالما أُغْلقَت البابَ وراء ظهرها ..
لامعةَ العينْين !!

* * *

لا نهدُها (اليمامةُ التى تهم بانطلاقها)
ولا انحسار الثوب فوق ساقها
هو الذى حاصرّنى فى الجسد ـــ الجزيرة .
لكنه .. شيءٌ بها .. كأنه اليتمُ ..
كأنه الفرارْ ..
يذوب ما بين ذراعىَّ : فتهدأ السريرة
وتلتوى الأناملُ البيضاء حول كَتِفى ..
كأنما نحن : الغريق .. والحطام الخَشَبى !
تمسك بى ..
فى لحظة احتراقها ..
فى لحظة التخلىِّ عن عناقها !
تمسك بى ..
حتى مع استرخاءة النوم القصيرة

اذا انفلتُّ من يديها
وهىَ فى استغراقها !!
وصار بيتى بيتنا معاً ، وصارْ ..
أرجوحةً وثيرة .
وصارت الألفةُ ثوباً واحدا
نلبسه تحت جلودنا
فلا يبلى ..
ولا يلحقه الغبارْ !
عاريةً ـــ إلا من الحب ـــ تروح وتجىءْ
يأتى غناؤها بصوتها الدافىء
وهى ترش الماءَ فى الحمَّامِ ،
أو .. جالسةً على الأريكة الأثيرةْ
وهى تُسَوِّى شعرَها ،
أو .. وهى عند النار
تُعِد فيها قهوةَ الافطارْ
أو .. تمنح الرونقَ للأشياءِ
فى لمستها الخبيرة
تكْوى المناديلَ الحريريَّة .. والتنُّورة
أو تمسح الغبارَ حول صورة !

وها أنا بعد رحيلها المفاجىءْ
أعمى بلا بصيرة .
فتشتُ عنها كلَّ حانات المدينة الكبيرة
وغرفَ الطلابِ ..
والمستشفياتِ ..
والملاجىءْ ..
لكننى لم أر غيرَ الوحشة المريرة
وذكرياتها المنثورة
فى البيت ، فى مكانها ..
تنتظر اليدَ الأميرة
تنتظر الخيطَ .. الذى ينظم اللآلىءْ .

• • •

ـــ كأسكَ !
ـــ حان موعد الاغلاقْ .
ـــ لم تبق الا قطرةٌ أخيرة .
ـــ كأسكَ !
.. لن تعيدَها الأشواقْ !!

أتركُ كلَّ شىء فى مكانهِ :
الكتابَ ، والقنبلةَ الموقوتةْ
وقدحَ القهوة ساخناً ،
وصيدليةَ المنزل ،
واسطوانةَ الغناءْ .
والبابَ مفغورَ الفم ،
.. البابَ .. وعينَ القطةِ الياقوتةْ .
أتركُ كل شىء فى مكانه ،
وأعبرُ الشوارعَ الضوضاءْ
مخلّفاً خلفى : زحامَ السوق ..
والنافورةَ الحمراءَ ..
والهياكلَ الصخريَّةَ المنحوتةْ
أخرج للصحراء !
أُصبح كلباً دامىَ المخالبْ
أنبش حتى أجدَ الجثةَ ،

حتى أقضم الموتَ الذى يدنِّس الترائب !
أدسُّ فى الحفرةِ وجهى الشرهَ المحمومْ
تصبحُ بوقاً مصمتاً حول فمى المنكفىءِ المزموم
وصارخاً فى رحمِ الأرضِ ..
أصيحُ : يا بساطَ البلدِ المهزومْ ..
لا تنسحبْ من تحت أقدامى ..
فتسقط الأشياءْ ..
من رفِّها الساكن فى خزانة التاريخ ،
تسقط المسمَّيات والأسماء !
أصرخ .. ليس يَصِلُ الصوتُ
أصرخ .. لايجيب إلا عَرَقُ التربةِ والسكونُ والموتُ
ويستديرُ حول رأسىَ الطنينُ ،
ويلوِّم الهواءْ
أسقط واقفاً ..
وخائفاً .
أن يحملَ الصدى ندائى للهَوَائيَّاتِ ..
فوق أسطح البيوت
أن تفشىَ الرمالُ صوتىَ المضىءَ ،

صوتىَ المكبوتَ !
أبكى إلى أن يستدير الدمعِ فى الحفرةْ
أبكى .. إلى أن تهدأ الثورةْ
أبكى إلى أن ترسخ الحروفُ فى ذاكرة الترابْ
أعود ضالاً ..
أتْبَعُ الأسلاكَ ، والدمَ الرُّكامَ ،
والدمَ المنسابْ
أبحث عن مدينتى التى هجرتُها ..
فلا أراها !
أبحث عن مدينتى :
يا إرم العمادْ
يا إرم العمادْ
يا بلدَ الأوغادِ والأمجادْ
رُدِّى إلىَّ : صفحةَ الكتابْ
وقدحَ القهوةِ .. واضطجاعتى الحميمةْ
فيرجعُ الصدى ..
كأنه اسطوانةٌ قديمةْ :
يا إرم العمادْ
يا إرم العمادْ

رُدِّى إليه : صهوةَ الجوادْ
وكُتُبَ السحرِ ..
وبعضَ الخبزِ فى زوَّادةِ السفَرْ
فقلبه الذى انشطر
يرقد فوق زهرة اللوتسِ فى المنفى ،
يطالع المكتوبْ
منتظراً حتى يفورَ الكوبْ
فى يدِهِ ،
يدير فوق جسمه رداءَه المقلوبْ
لكى يعود فى مواسم الحصاد
أغنيةً .. أو وَرْدَةْ
للباحثين عن طريق العودةْ !

- ١ -

كنتُ لا أحمل إلا قلماً بين ضلوعى .
كنت لا أحمل إلا .. قلمى .
فى يدى : خمسُ مرايا
تعكس الضوءَ (الذى يسرى إليها من دمى)
.. طارقاً بابَ المدينة :
ــ « إفتحوا الباب »
فما ردَّ الحرسْ
ــ « افتحوا البابَ .. أنا أطلب ظلاً .. »
قيل : « كلاَّ »
.. ..
أمطرى يا قبضةَ الزبْدِ التى تُدعى سُحُبْ
أمطرى رغوتكِ الجوفاءَ فى كوب اللهبْ
هذه الأسوار ما رقَّتْ لدقاتِ الحزينةْ
وشعاعُ القبة الفضيَّة الملساءِ يغلى ..
فى مراياى الثمينةْ

آه لو أملك سيفاً للصراع
آه لو أملك خمسين ذراع :
لتسلمت ــ بإيمانى الهرقلى ــ مفاتيح المدينةْ
آه .. لكنى بلا حتى .. مؤونة !

* * *

أيها العشب الذى ينضحُ حُمّى
إننى أنشُدُ فى جنبيك .. حلما
(.. واستكانتْ شفةُ الوهج على وجهى طويلا ..)
ربما يُفتح هذا البابُ يوما
أيها العشب الذى ينضح حمّى
شمسُنا مطفأة العينين .. دَوْما !
يا طريق التلِّ (حيث القبة الملساء تبدو ..
صنماً ضخماً تحدى المستحيلا)
يا طريق التلِّ :
ما زالت على جنبيك آلافُ النفاياتْ ..
لسكان القباب المصمتةْ
من قمامات البقايا الميّتةْ

وزجاجات خمورٍ فارغة
وكلابٍ والغةْ
ورمادٍ ، وورقْ !
آهِ .. يا ذكرى الحنين المحترقْ
آه ، كم كنّا ــ كما كنت ــ نرشُّ النورَ والشوق النبيلا
وتهدجنا غناءً ..
وتهدجنا بكاءً ..
وتهدجنا .. فُضُولا
ثم .. لم نلقَ من الحبِّ عدا : باباً بخيلا !!

ــ ٢ ــ

قرقعتْ فى الصمت حولى عجلاتُ المركبةْ
ــ « أوقفِ الخيلَ »
أطلّتْ :
ــ « من تُرى أنتَ ؟ »
فأومأتُ مجيبا
قالت : « اصعدْ »

— « آهِ ياذات العيون الطيّبةْ
كلُ شيءٍ يتنهَّدْ
كل شيء فى دمى .. لا يتحدَّدْ
أنا لا أملك حتى كلماتِ الشكرِ ..
حتى كلماتُ الشكرِ .. ولَّتْ !
— « أغريبٌ ؟ »
قلتُ : ما عدتُ غريبا
بيتنا كان على ربوة نجمةْ
كم قرأنا فيه عن سحر لياليكِ كثيرا
عن جبينٍ يهب العمرَ تناهيدَ ورحمةْ
ورسَمْنَا وجهكِ المعبودَ فوق المنزلِ
وعلى صدر الربيع المقبلِ
وتعشقناكِ : حزناً أرجوانيًا أميرا
وتعشقناكِ : شعْراً كستنائياً غزيرا
وتعشقناكِ : ثوباً جدلته الحورُ ..
من زهْو المطرْ
وعشقنا فيكِ : حتى خُفَّكِ المجلوبَ من وادى القمر !
قالت : « اهدأ ..
سوف تحكى لى هناكْ .. »

وأشارت نحو قصر القبّة الملساءِ ،
ثم استطردَتْ :
إنه مُلْكُ أبى » !
عندما كان (سليمانُ) وليّا
لم يكن يملكُ هذا القصرَ ذا المليون بابْ
قيل مكتوبٌ على جدرانه الماسية الزرقاءِ ..
أحلامُ شبابْ
قيل فى الساحةِ نافورةُ خلدْ
وعلى الباب نقوشٌ أثريّة .
آهِ .. يا حراسَه .. هذا أنا !!
إرفعوا الأيدى وأدوا لى التحيّةْ
ارفعوا المزلاجَ .. فالركبُ يسيرْ
« يد مولاتى » ..
ومدت يهَا (بدرُ البدورْ)
نصعد السلّم : يا معراجُ ما كنتُ نبيّا !
أنا فى البلّلور حولى فى السنا : ألفُ أنا
فامض يا معراجنا نحو الجَنَاحْ
واعزفى يا جوقةَ الميلادِ لحنَ الإفتتاح !

• • •

سكرتْ كاساتنا من خمر بابلْ
ألف خيطٍ فى دمانا .. يستبدّْ
— « آه يا سيدتى : أنتِ مَلَكْ ..
أنا لاأحمل إلا قلماً بين ضلوعى ..
فخذيه .. إنه أثمن ما عندى .. خذيه »
ومشت راحتُها فوق جبينى ،
هتف لى : « شهريار »
— « شهرزادى : أسكبى شَهْدَ الرحيق المتواصلْ
ثم قُصّى من حكاياكِ الجديدةْ
من زمانٍ لم أعُدْ أسمع أشياءَ جديدةْ
أسردى .. »
— « لبيكَ يا مولاىَ .. قالوا .. ..
.. ..
ثم لم نملكْ قُوانا
وعلى الجدران لوحاتٌ فريدةْ
لرغيف .. وزجاجاتٍ من الخمرِ .. وراع ..
وقطيع !
(آه .. ما أقسى الجدارْ
عندما ينهض فى وجهِ الشروقْ !

ربما نُنفق كلّ العمرِ كى ننقب ثغرةْ
يمرّ النورُ للأجيالِ .. مرّةْ !
.. ..
ربما لو لم يكن هذا الجدارْ :
ما عرفنا قيمةَ الضوءِ الطليقْ !!)

— ٣ —

شَفَةٌ ثلجيّةٌ فى جبهتى تسرى .. مُلحّةْ
« قد أتى الصبحُ... فقُمْ »
شدّنى السيافُ من أشهى حُلُمْ
حاملاً أمر الأميرةْ
— « أنا يا مسرورُ معشوقُ الأميرةْ
ليلةٌ واحدةٌ تُقضى .. بدَمْ ؟!
يا ترى من كان فينا شهريار ؟!
أنا يا مسرورْ .. »
(مسرورٌ على الباب : رخامْ)
— « أنا يامسرورُ لم أسعد من الدنيا بفرحة
أنا لم أبلغ سوى عشرينَ عامْ

خذ ثيابى .. خذ مراياى المنيرةْ .. »
ــ « حسناً ، فاهربْ من الباب الذى فى آخر الممشى
ولا ترجعْ هنا »
يا طريق التلّ حيث القبةُ الملساءُ .. خلفى
حيث مازالت على جنبيك آلافُ النفاياتِ ..
لسكان المدينةْ :
الكلابُ الوالغةْ ..
وزجاجاتُ الخمور الفارغةْ ..
وأنا .. أحمل اقدامى الحزينة !!

الضحك فى دقيقة الحداد !

.. ووقفنا فى العراءْ
ببقايا أغْمِدَةْ .
انتظرنا ان يمرَّ الشعراءْ
ربما يمنحنا دفءُ الغناء
ربما .. ليلةَ حبٍّ واحدةْ .
وتنصتّنا لوقع الخطوِ ، غربلْنا الهواءْ
لم يكن إلا .. سكونُ الصَحراءْ
وطنينُ الأفئدةْ !

* * *

عامُ تحتَ الصِّفرِ .. صفْرَ اليدِ جاءْ
حين كنا فى ضمير الليل روحاً مجهدة .
طَرَقَ الباب ، ونادى فى حياء

فاستدرنا فى فراش النوم ،
أحكَمْنا الغطاءْ
وتركناه لهبّات الرياح الباردة .

° ° °

كنتُ فى المقهى ، وكان الببَّغاء
يقرأ الأنباءَ فى فئران حقل القمح ،
فوق القرَدَةْ
وهى تجترّ النراجيلَ ، وترنو للنساء .
.. ..
(ــ رفعُ أثمان جميع الأسْمِدَةْ)
.. ..
.. النساءُ القططُ ــ الأفراسُ ــ سِمَّانُ العشاء
وعيونُ الرغبةِ الفئرانُ تبتلُّ بأصداء المُواءْ .
.. ..
(ــ رفعُ سعر الصوفِ ..)
.. .. .. ما من فائدة !

كادت السيارةُ الحمراءُ أن تقصم ظهر السيدة
والنساءُ ــ القططُ ــ الأزياء يخلعن الرداء
.. ..
(ــ ثائرٌ يَقْتُلُ فى طهرانَ بالأمسِ ــ رئيسَ الوزراء)
.. ..
رقعة الشطرنج : مات الشاهُ ، دورُ الأبتداءْ ..
هزَم الأبيضُ فيه اسْوَدَه
حين كنَّا فى ضمير الليل روحا مجهدةْ .
.. ..
تلعقُ الفئرانُ فى الجُحْر ترابَ الإشتهاء
وهى تجترُّ النراجيلَ ، وترنو للنساء
النساءِ ــ القططِ الكسلى ،
.. ..
.. .. .. (اشتباكٌ عسكرىٌ فى المساءْ)
برهةً : ترتفع الأعينُ عن طاولة الزهر وموسيقى النساء
تَبرُقُ النظرة من تحت الجفون الخامدةْ
.. ..
(مجلسُ الأمنِ يُوالى ..)
.. .. ويعود الإنحاءْ

تجلس العينُ على نقش البلاطِ القرفصاءْ
ثم تنساهُ ، وتطويها فنونُ العربدةْ !!
قال لى :
« ها هو بهْوُ الأعمدةْ »
.. ..
من هنا مَرَّتْ خيولُ الخيلاءْ
من هنا مرتْ .. فلم يُدفنْ لها قتلى ،
ولم تُحقنْ دماء .
حطَّت الحداةُ فوق المائدةْ
رفع النسرُ عن الشمسِ . يَدَهْ
فهوتْ ، والأرضُ غطَّاها الوباءْ .
.. ..
نقشةُ الجدرانِ فى قلبى ،
وفى عينى الرمالُ الراقدةْ
الرمالُ الرابضاتُ ــ اليومَ ــ من حول البناءْ
الرمالُ ــ الندمُ الحارقُ لى خبزٌ وماءْ .
يا بقايا المومياءْ :
نحن أسبلنا العيونَ الرَّمِدَةْ
حين أنكرناكِ قبل الفجرِ ..

(والفجرُ إلى اللحظةِ لم يأتِ ،)
وجاء ..
بدلاً منه : الوباء ،
كلما استشرَفَت النظرةُ أفقَ النور : شَمَّتْ جسدهْ
فتراخت .. مُقْعدهْ ،
وانتظرنا الصيفَ فى فصل الشتاءْ
واغتسلنا ننشُدُ البرءَ نهارَ الأربعاء
ودعونا الله أن يكشف عنا الغُمَّة المنْعَقدةْ :
أعطنا ليلة حب واحدة
أعطنا ليلة طهر واحدة
أعطنا ليلة صدق واحدة
وتنسَّمْنا صدى الدعوةِ ، غربلْنا الهواء
لم يكن إلا .. الوباء
جَرَباً تحت الجُلودِ :
الظُّفْرُ لا يجدى ..
ولا يجدى الدواء !
جَرَبٌ أوغلَ . حتى الأفئدة !!

° ° °

ووقفنا فى العراء
بقايا أغمدة ..
وتلفَّتْنا ، فأبصرنا عظامَ الشهداء
تتلوّى فى رمالِ الصَحَراء
تقصد النيلَ .. لكى يمنحها جرعة ماء
فسقاها .. كَمَدَه !
ورأينا فى مرايا مائهِ أوجهنا ..
كنا عراةً تعساء
خلفنا يصطكُّ بابُ المصيدَة .
.. والشفاهُ المرغياتُ المزبدة .
تتبارى فى الهتافاتِ ،
تدقُّ المنضدة
ثم تنسلُّ اذا انفضَّ البكاء
تتلهَّى بالصدور الناهدة
فى حوانيت الشواء ،
.. .. ..
.. .. ..
يا عصافير الشتاء :

لا تلومينى .. إذا الطوفانُ جاء
.. ..

(١٩٦٩)

الموت فى .. الفراش

(بيان)

أيها السادةُ : لم يبقَ اختيارْ
سقط المُهْرُ من الإعياءِ ،
وانحلّتْ سيورُ العَرَبةْ
ضاقت الدائرةُ السوداءُ حول الرقبةْ
صدرُنا يلمسُه السيفُ ،
وفى الظّهرِ : الجدار !
.. ..
أيها السادةُ : لم يبقَ انتظارْ
قد منعنا جزيةَ الصمتِ لمملوكٍ وعَبْدْ
وقَطَعنا شعرةَ الوالى « ابنِ هند »
ليس ما نخسرهُ الآنَ ..
سوى الرحلةِ من مقهى إلى مقهى ..
ومن عارٍ .. لعَارْ !!

– ١ –

على محطات القُرى ..
ترسو قطاراتُ السهادْ
فتنطوى أجنحةُ الغبار فى استرخاءةِ الدُنُوّْ
والنسوةُ المتشحاتُ بالسوادْ
تحت المصابيح ، على أرصفةِ الرسوّْ
ذابت عيونُهن فى التحديقِ والرنُوّْ
علَّ وجوه الغائبين منذ أعوام الحدادْ
تشرقُ من دائرةِ الأحزانِ والسُلُوّْ
.. ..
ينظرن .. حتى تتآكلَ العيونُ
تتآكلَ الليالى ،
تتآكلَ القطاراتُ من الرواج والغدوّْ
والغائبون فى ترابِ الوطنِ ــ العدوّْ
لا يَرْجعون للبلادْ ..
لا يخلعون معطفَ الوحشةِ عن مناكبِ الأعيادْ !

— ٢ —

نافورةٌ حمراءْ .
طفل يبيع الفُلَّ بين العَرَبَات .
مقتولةٌ تنتظر السيّارةَ البيضاء .
كلبٌ يحكُّ أنفَه على عمود النورْ .
مقهى ، ومذياعٌ ، ونَرْدٌ صاخبٌ ، وطاولاتْ .
ألويةٌ مَلْويَّةُ الأعناق فوق السارياتْ .
أنديةٌ ليليّة .
كتابةٌ ضوئية .
الصحفُ الداميةُ العنوانِ .. بيضُ الصفحاتْ .
حوائطٌ ، ومُلْصَقَاتْ ..
تدعو لرؤية (الأبِ الجالسِ فوق الشجَرَةْ)
والثورةِ المنتصرة !

إيقاعات :

سرحانُ يا سرحانْ
والصمتُ قد هدَّكْ
حتّى متى وحدَكْ
يَخْفِرُكَ السجّانْ ؟
.. ..
نقْتُلُ ، أو نُقْتَلْ
هذا الخيارُ الصعبْ
وشلّنا بالرعبْ ..
تَرَدُّدُ العُزّلْ
.. ..
فى البيتِ ، فى الميدانْ
نُقْتَلُ يا سرحان !

— ٣ —

أبخرةُ الشاى تدور فى الفناجين ، وتشرئبّْ
يَلْتَمُّ شملُ العائلةْ
.. إلا الذى فى الصحَرَاءِ القاحلةْ

يرقدُ فى أمعاءِ طائرٍ وذئْبْ

(يهبط من صورته المقابله

يلتفُّ حول رأسهِ الدامى شريطُ الحزنْ

يجلسُ قربَ الركنْ

يصْغى إلى ثرثرةِ الأفواهِ والملاعقِ المُبْتَذَلَةْ

ينشقُّ فى وقفته .. نصفينْ

يصبُّ فى منتصف الفنجانِ .. قطرتينْ

من دمهِ ،

ينكسرُ الفنجانُ .. شظيتين)

ينكسرُ النسيانْ

وهو يعود باكياً إلى إطارِ الصوره المُجَلّلة

بآيةِ القرآنْ !

إيقاعات :

الدمُ قبلَ النومْ

نلبسه .. رداءا

والدمُ صار ماءا

يُراقُ كلَّ يومْ

.. ..

الدمُ فى الوسائدْ

بلونه الداكنْ

واللَّبَنُ الساخنْ

تبيعُه الجرائدْ

.. .. ..

اللَّبَنُ الفاسدْ

اللَّبَنُ الفاسدْ

اللَّبَنُ الفاسدْ

يُخْفى الدمَ — الشاهدْ

— ٤ —

أموتُ فى الفراشِ .. مثلما تموتُ العيرْ ،

أموتُ ، والنفيرْ ..

يدقُّ فى دمشقَ ..

أموت فى الشارعِ : فى العطورِ والأزياءْ

أموتُ ، والأعداءْ ..

تدوسُ وجهَ الحقّْ .

« وما بجسمى موضع إلا وفيه طعنةٌ برمحْ »
.. إلا وفيه جُرْحُ ،
إذَنْ .

« فلا نامت عيونُ الجُبَناء »

١٩٧٠

لا وقت للبكاء

لا وقتَ للبكاء .
فالعَلَمُ الذى تنكَسينَهُ .. على سرادقِ العزاء
مُنَكَّسٌ فى الشاطىء الآخرِ ،
والأبناء ..
يُستَشهَدونَ كى يقيموه .. على « تَبَّة » ،
العَلَمُ المنسوجُ من حلاوةِ النصر ومن مرارة النكبةْ
خيطاً من الحبِّ .. وخيطين من الدماء
العَلَمُ المنسوج من خيام اللاجئين للعراء
ومن مناديلِ وداع الأُمَّهاتِ للجنود :
فى الشاطىء الآخرِ ..
مُلقَىً فى الثرى ..
ينهشُ فيه الدُّودْ ،
ينهشْ فيه الدودُ .. واليهودْ
فانخلعى من قلبكِ المفئود

فها على أبوابكِ السبعةِ ، يا طِيبَةُ ..

ياطيِّبَـــةَ الأسماءْ :

يُقْعى أبو الهولِ ،

وتُقعى أمَّةُ الأعداء

مجنونــة الأنيابِ والرغبةْ ..

تشربُ من دماءِ ابنائكِ قربةً .. قربةْ

تفرشُ أطفالكِ فى الأرضِ بساطاً ..

للمدرَّعاتِ والأحذيةِ الصلبةَ

وأنتِ تبكين على الأبناء ،

تبكين ؟

يا ساقيةً دائرةً ينكسر الحنينْ ..

فى قلبها ، ونيُلكِ الجارى على خدِّ النجوع

مجرى دموع

ضفافه : الأحزانُ والغربةْ ،

تبكين ؟ مَنَ تبكينْ ؟

وأنتِ طولَ العمرِ ــ تشقيَنَ ، وتحصدينْ ..

مرارةَ الخيبةْ

وأنتِ ــ طولَ العمرِ ــ تبقيَنَ ، وتُنجبينْ ..

مقاتلينَ .. فمقاتلينَ .. فى الحَلَبَةَ .

° ° °

الشمسُ (هذه التى تأتى من الشرق بلا استحياء)

كيف تُرى تَمُرُّ فوق الضفة الأخرى ..

ولا تجيءُ مُطْفَأه ؟

والنسمةُ التى تَمُرُّ فى هُبوبها على مخيَّم الأعداء

كيف تُرى نَشُمُّها .. فلا تسدُّ الأنفَ ؟

أو تحترقُ الرئةْ ؟

وهذه الخرائطُ التى صارتْ بها سيناء

عِبْرِيَّةَ الأسماء

كيف نراها .. دون أن يصيبنا العمى ؟

والعارُ .. من أمَّتنا المُجَزَّأة ؟

.. والطفلةُ الصغيرةُ العذبة

تُطلقُ ــ فوقَ البيتِ ــ « طيَّارتَها » البيضاء

كيف تُرى تكتُب فى كرَّاسةِ الإنشاء

عن بيتها المهدومِ فوق الأبِ .. واللعبةْ ؟

وأُمِّى التى تظلُّ فى فناءِ البيت مُنكَبَّةْ

مقروحةَ العينين ، مسترسلةَ الرثاءْ
تنكتُ بالعُودِ على التربة :
رأيتُها : الخنساءْ
ترثى شبابَها المستشهدين فى الصَحَراءْ .
رأيتُها : اسماءْ
تبكى ابنَهَا المقتولَ فى الكعبةْ ،
رأيتُها : شَجَرَةَ الدرِّ ..
تردُّ خلفها البابَ على جثمانِ (نجم الدِّينْ)
تُغلقُ صدرَهَا على الطعنةِ والسكِّينْ
فالجندُ فى الدِّلتا
ليس لهم أن ينظُروا إلى الوراء
أو يدفنوا الموتى
إلا صبيحةَ الغدِ المنتصرِ الميمونْ
.. ..
(.. والتينِ والزيتونْ
وطورِ سينينَ ، وهذا البلدِ المحزونْ
لقد رأيتُ يومَها : سفائنَ الإفرنجْ
تغوص تحت الموجْ .

وملكَ الإفرنجْ
يغوص تحت السرجْ .
ورايةَ الإفرنجْ
تغوص ، والأقدام تَفرِى وجهها المُعَوَجّْ ،
.. وها أنا ـــ الآنَ ـــ أرى فى غدكِ المكنونْ :
صيفاً كثيفَ الوَهجْ
ومُدُناً ترتجّْ
وسُفُناً لم تَنجْ
ونجمةً تسقطُ ـــ فوق حائط المبكى ـــ إلى الت
ورايةَ (العُقَابْ)
ساطعةً فى الأوْجْ ..)

* * *

والتينِ والزيتونْ
وطورِ سينينَ ، وهذا البلدِ المحزونْ
لقد رأيتُ ليلةَ الثامنِ والعشرينَ ..
من سبتمبر الحزينْ :

رأيت فى هتافِ شعبىَ اجريح
(رأيتُ خلفَ الصورةَ)
وجهَكِ .. يا منصورة ،
وجهَ لويس التاسعِ المأسورِ فى يَدَىْ صبيح
.. ..
رأيتُ فى صبيحةِ الأوّلِ من تشرينْ
جندَكِ .. يا حطِّينْ
يبكونَ ،
لا يدرونَ ..
أن كلَّ واحدٍ من الماشينَ
فيه .. صلاحُ الدِّين !

(٢٨ سبتمبر ١٩٧٠)

العهْد الآتي

وقال الرب الاله هو ذا الانسان قد صار كواحد منّا عارف
الخير والشر .

العهد القديم
تك ٣ : ٢٢

مملكتى ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتى من هذا العالم
لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم إلى اليهود .

العهد الجديد
يو ١٨ : ٣٦

أبانا الذى فى المَبَاحِثِ . نحن رعاياكَ . باقٍ
لكَ الجبروتُ . وباقٍ لنا الملكوتُ . وباقٍ لمن
تَحْرُسُ الرَّهَبُوتُ .

* * *

تفردَّتَ وحدكَ باليسرِ . إن اليمينَ لفي الخُسْرِ .
أمّا اليسارُ ففى العُسْرِ . إلا . الذين يُمَاشونَ .
إلا الذين يعيشونَ يَحْشُونَ بالصحفِ المشتراةِ
العيونَ .. فَيَعْشُونَ . إلا الذين يَشُونَ . وإلاّ
الذين يُوَشُّون ياقات قمصانهم برباط السكوتْ !
تعاليتَ . ماذا يهمُّكَ ممن يذُمُّكَ ؟ اليوم يومك
يرقى السجينُ إلى سُدَّة العرش ..
والعرشُ يصبح سجنا جديداً وأنتَ مكانكَ . قد

يتبدَّلُ رسمُكَ واسمُكَ . لكن جوهركَ الفردَ
لا يَتحوَّلُ . الصمتُ وشمكَ . والصمت وَسْـ
والصمت ــ حيثُ التَفتَّ ــ يرين ويَسْمُكُ
بين خيوط يديكَ المشبَّكتين المصمّغتين يلفُّ
الفراشةَ .. والعنكبوتْ .

• • •

أبانا الذى فى المباحثِ . كيف تموت .
وأغنيةُ الثورة الأبديةِ
ليستْ تموت !؟

(الاصحاح الأول)

فى البدء كنتُ رجلاً .. وامرأةً .. وشجرةْ .
كنتُ أباً .. وابناً .. وروحاً قُدُسا .
كنتُ الصباحَ .. والمسا ..
والحَدْقَةَ الثابتة المُدَوَّرةْ .
وكان عرشى حجراً على ضفاف النهرْ
وكانت الشياهْ ..
ترعى ؛ وكان النحلُ حول الزَّهرْ ..
يطنُّ ؛ والإوزُّ يطفو فى بحيرةِ السكونِ ،
والحياةْ ..
تنبضُ ــ كالطاحونةِ البعيدة !
حين رأيتُ أن كلَّ ماأراه
لاينقذُ القلبَ من المللْ !

... ...
(مبارزاتُ الديَكة
كانت هى التسليةَ الوحيدةْ
فى جلستى الوحيدة
بين غصونِ الشجرِ المشتبكةْ !)

(الاصحاح الثاني)

قلتُ لنفسى : لو نزلت الماء .. واغتسلت .. لانقسمتْ
(لو انقسمت .. لازدوجت .. وابتسمتْ)
وبعدما استحممتْ ..
تَناسَخَ الزهرُ وشاحاً من حرارةِ الشفاهْ
لَفَفْتُ فيه جسدى المصطكّ .
(وكان عرشى طافياً .. كالفُلْكْ)
ورفَّ عصفورٌ على رأسى ؛ وحطَّ ينفض البَلَلْ
حدَّقتُ فى قرارةِ المياه
حدَّقتُ ؛ كان ماأراه
وجهى .. مكللاً بتاج الشوكْ !

(الاصحاح الثالث)

قلتُ : فليكن الحبُّ فى الأرض ، لكنّه لم يكُنْ !
قلتُ : فليذبِ النهرُ فى البحرِ ، والبحرُ فى السُّحْبِ ،
والسُّحْبُ فى الجدبِ ، والجدبُ فى الخصبِ ، ينبتِ
خبزاً ليسندَ قلب الجياعِ ، وعشباً لماشيةِ
الأرضِ ، ظلاً لمن يتغرَّبُ فى صحراء الشجنْ .
ورأيتُ ابنَ آدمَ — ينصبُ أسواره حول مزرعةِ
الله ، يبتاعُ من حوله حَرساً ، ويبيع لإخوتهِ
الخبزَ والماءَ ، يحتلبُ البقراتِ العجافَ لتعطى اللبَنْ .
قلتُ فليكنِ الحبُّ فى الأرض ، لكنه لم يكن .
أصبح الحبُّ مِلكاً لمن يملكون الثمنْ .
... ...
ورأى الربُّ ذلك غيرَ حَسَنْ !

° ° °

قلت : فليكنِ العدلُ فى الأرض ؛ عَيْنٌ بعَيْنٍ وَسِنٌ بِسنْ .
قلت : هل يأكلُ الذئبُ ذئباً ، أو الشاةُ شاةً ؟
ولا تضع السيفَ فى عُنُقِ اثنينِ : طفلٍ .. وشيخٍ مُ

ورأيتُ ابنَ آدمَ يُرْدِى ابنَ آدمَ ، يُشعلُ فى
المدنِ النارَ ، يغرسُ خنجرَهُ فى بطونِ الحواملِ ،
يُلقى أصابعَ أطفالهِ عَلَفاً للخيولِ ، يَقُصُّ الشفاهَ
وُرُوداً تُزَيِّن مائدةَ النصرِ .. وهى تَئِنْ .
أصبحَ العدلُ موتاً ، وميزانه البندقية ، أبناؤهُ
صُلبوا فى الميادينِ ، أو شُنقوا فى زوايا المدنْ .
قلت : فليكن العدلُ فى الأرض ، لكنّه لم يكنْ .
أصبح العدلُ ملكاً لمن جَلَسُوا فوق عرشِ الجماجمِ
بالطَّيْلسانِ ـــ الكَفَنْ .
....
ورأى الربُّ ذلكَ غيرَ حَسَنْ !

* * *

قلت : فليكن العقلُ فى الأرضِ ، تُصغى إلى صوْته المتّزن .
قلت : هل يبتنى الطيرُ أعشاشَه فى فم الأفعوانِ ،
هل الدُّودُ يسكنُ فى لهب النارِ ، والبُومُ هل
يضع الكُحْلَ فى هدبِ عينيه ، هل يبذر الملحَ

مَنْ يرتجى القمحَ حين يدورُ الزمنْ .
ورأيت ابن آدمَ وهو يُجَنُّ ، فيقتلع الشجرَ المتطاولَ ،
يبصق فى البئرِ ، يلقى على صفحة النهر بالزيتِ ،
يَسْكُن فى البيتِ ؛ ثم يُخَبِّىءُ فى أسفل البابِ
قنبلةَ الموتِ ، يُؤْوِي العقاربَ فى دفء أضلاعِهِ ،
ويُوَرِّثُ ابناءَه دينَه .. واسمهُ .. وقميص الفِتَنْ .
أصبح العقلُ مُغترباً يتسوَّلُ ، يقذفه صِبْيَةٌ
بالحجارةِ ، يُوقفهُ الجندُ عند الحدودِ ، وتسحبُ
منه الحكوماتُ جنسيَّةَ الوطَنىِّ .. وتُدْرِجُهُ فى
قوائم من يكرهون الوطنْ .
قلتُ : فليكن العقلُ فى الأرضِ ، لكنّه لم يكنْ .
سقط العقلُ فى دورةِ النفى والسجنِ .. حتّى يُجَنّ
... ...
ورأى الربُّ ذلكَ غيرَ حَسَنْ !

(الاصحاح الرابع)

قلتُ : فلتكن الريحُ فى الأرض ؛ تكنس هذا العَفَر
قلت : فلتكن الريحُ والدمُ ... تقتلعُ الريحُ هَشهَشَ

الورقِ الذابلِ المُتشبِّثِ ، يندلع الدمُ حتى
الجذورِ فيزهرُها ويطهِّرها ، ثم يصعدُ فى
السُّوقِ .. والورقِ المُتَشابكِ . والثمر المُتَدَلِّى ؛
فيعصرُه العاصرون نبيذاً يزغرد فى كلِّ دنْ .
قلتُ : فليكن الدمُ نهراً من الشهد ينساب تحت فراديس عَدْنْ
هذه الأرضُ حسناءُ ، زينتُها الفقراءُ ، لهم تتَطَيَّبُ ،
يعطونَها الحُبَّ ، تعطيهم النسلَ والكبرياءْ .
قلت : لا يسكن الأغنياءُ بها . الأغنياءُ الذين
يَصُوغونَ من عَرَقِ الأُجَراءِ نُقُودَ زنا .. ولآلىءَ
تاجٍ . وأقراطَ عاجٍ .. ومسبحةً للرياءْ .
إننى أولُ الفقراء الذين يعيشون مُغْتربينَ ،
يموتون مُحْتسبين لدىَّ العزاءْ .
قلت : فلتكن الأرضُ لى ... ولَهُمْ !
(وأنا بينهم)
حين أخلع عنى ثيابَ السماءْ .
فأنا أتقدَّسُ — فى صرخة الجوع — فوق الفراش الخَشِنْ !

(الاصحاح الخامس)

حدَّقتُ فى الصخر ؛ وفى اليَنْبُوعْ
رأيتُ وجهى فى سِمات الجُوعْ !
حدَّقت فى جَبينىَ المَقْلُوبْ
رَأَيْتَنى : الصليبَ والمصلوبْ
صرختُ — كنتُ خارجاً من رَحِمِ الهناءةْ
صرختُ ؛ أطلبُ البراءة
كَيْنُونَتى : مشنقتى
وحَبْلَى السُّرِّىُّ :
حَبْلُها
المقطوعْ !

سفر الخروج

(أغنية الكعكة الحجرية)

(الاصحاح الأول)

أيُّها الواقفون على حافَّة المذبحةْ
أشْهِرُوا الأسلحةْ !
سقطَ الموتُ ؛ وانْفَرطَ القلبُ كالمسبحةْ
والدمُ انسابَ فوق الوشاح !
المنازلُ أضْرِحَةٌ ،
والزنازن أضْرِحَةٌ ،
والمَدَى .. أضْرِحَةْ
فارفعوا الأسلحة
واتبعُونى !
أنا نَدَمُ الغدِ والبارحة
رايتى : عَظْمَتَانِ .. وجُمْجُمَة ،

وشِعارى : الصباح !

(الاصحاح الثانى)

دَقَّت الساعةُ المُتْعَبَةْ
رفعت أُمِّهَ الطيِّبة
عَيْنَها ..
(دَفَعَتْهُ كُعُوبُ البنادقِ فى المركبة !)
... ...
دقت الساعةُ المُتعبة
نهضتْ ؛ نَسَّقَتْ مكتبه ..
(صفعته يَدٌ ..
ـــ أدْخلتْهُ يَدُ اللهِ فى التجربة ـــ)
... ...
دقت الساعةُ المتعبة
جلست أُمُّه ؛ رَتَقَتْ جَوْرَبَهْ ..
(وَخَزَتْهُ عيونُ المُحَقِّقِ ..

حتى تَفَجَّرَ من جلده الدمُ والأجوبة !)
... ...
دقت الساعةُ المتعبةْ !
دقت الساعةُ المتعبةْ !

(الاصحاح الثالث)

عندما تهبطين على ساحةِ القوم ؛ لا تَبْدئى بالسلامْ
فهمُ الآنَ يَقْتَسِمُون صغاركِ فوق صِحَاف الطعامْ
بعد أن أشعلوا النارَ فى العُشِّ ..
والقَشِّ ..
والسنبلة .
وغداً يَذْبحونك .. بحثاً عن الكنزِ فى الحَوْصَلَة !
وغداً تَغْتَدى مُدُنُ الألفِ عامْ .
مدناً .. للخيامْ
مدناً ترتقى دَرَجَ المقصلةْ !

(الاصحاح الرابع)

دقت الساعةُ القاسيةْ

وقفوا فى ميادينها الجَهْمَةِ الخاويةْ
واستداروا على دَرَجاتِ النُّصُبْ
شجراً من لَهَبْ
تعصف الريحُ بين ورُيقاته الغضة الدانيةْ
فَيَئِنُّ : « بلادى .. بلادى »
(بلادى البعيدةْ !)
... ...
دقت الساعةُ القاسيةْ
« انظروا » ؛ هتفتْ غانيةْ
تتمطّى بسيارة الرقم الجُمْرُكِىِّ ؛
وتمتمت الثانية :
سوف ينصرفون إذا البَرْدُ حَلَّ .. وَرَانَ التعب
... ...
دقت الساعةُ القاسيةْ
كان مذياعُ مقهى يذيع أحاديثَه الباليهْ
عن دُعاةِ الشغبْ
وهُم يستديرونَ ؛
يشتعلون ــ على الكعكةِ الحَجَرِيَّةِ ــ حولَ النُّصُبْ
شمعدانَ غَضَبْ

يتوهَّجُ فى الليلِ ..
والصوتُ يكتسحُ العتمةَ الباقيةْ
يَتغَنّى لليلة ميلادِ مصر الجديدةْ !

(الاصحاح الخامس)

أذكرينى !
فقد لَوَّنتْنى العناوينُ فى الصُّحُفِ الخائنةْ !
لَوَّنتْنى .. لأنّىَ منذ الهزيمةِ لا لونَ لى
(غير لونِ الضياعْ)
قبلَها ؛ كنتُ أقرأُ فى صفحةِ الرملِ
(والرملُ أصبح كالعُمْلةِ الصعبةِ ،
الرملُ أصبح أبْسطَةً .. تحت أقدام جيش الدفاع)
فاذكرينى ؛ كما تذكرين المُهَرِّبَ .. والمطربَ العاطفىَّ ..
وكَابَ العقيدِ .. وزينةِ رأسِ السنةْ .
أذكرينى إذا نَسِيتْنى شُهُودُ العيانِ
ومَضْبَطَةُ البرلمانِ
وقائمةُ التُّهمِ المُعْلَنَةْ
والوداعَ !

الوداعْ !

(الاصحاح السادس)

دقت الساعةُ الخامسةْ
ظَهَرَ الجندُ دائرةً من دُروعٍ وخُوذاتِ حربْ
ها هُم الآنَ يقتربون رويداً .. رويداً ..
يجيئون من كُلِّ صَوْبْ
والمُغَنُّون — فى الكعكةِ الحجريَّةِ — ينْقبضُونَ
وينْفرِجُونَ
كنبضةِ قَلْبْ !

يُشعلون الحناجرَ ،
يستدفئون من البرد والظلمةِ القارسة
يرفعُون الأناشيد فى أوجه الحرس المقتربْ
يشبكون أياديهمُ الغَضَّةَ البائسة
لتصيرَ سياجاً يَصُدُّ الرصاصَ !
الرصاص ..
الرصاص ..
وآه ..

« نحن فداؤ .... »
وتسقط حنجرة مُخْرَسَةْ
معها يسقطُ اسمكِ — يا مصرُ — فى الأرضِ
لا يَتبقَّى سوى الجسدِ المتهشِّمِ والصرخاتِ
على الساحةِ الدامسةْ !
دقت الساعة الخامسةْ
... ...
دقت الخامسةْ
... ...
دقت الخامسةْ
... ...
وتَفرَّقَ ماؤكَ — يانهرُ — حين بَلَغْتَ المَصَبْ !

* * *

المنازلُ أضرحةٌ ، والزنازنُ
أضرحةٌ ، والمدى أضرحه
فارفعوا الأسلحة !
ارفعوا
الأسلحة

سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس
(بكائيات)

(الاصحاح الأول)

عائدون ؛ وأصغرُ إخوتهم ذو العيون الحزينة
يتقَلَّب فى الجُبِّ ،
أجملُ إخوتهم .. لا يعودْ !
وعجوزٌ هى القدسُ (يشتعل الرأسُ شيبا)
تشم القميص . فتَبْيَضُّ أعينها بالبكاء ،
ولا تخلع الثوبَ حتى يجىءَ لها نبأٌ عن فتاها البعيد
أرضُ كنعان — إن لم تكن أنت فيها — مراعٍ من الشوكِ
يُورثها الله من شاءَ من أممٍ ،
فالذى يحرس الأرض ليس الصيارف
إن الذى يحرس الأرض ربُّ الجنود
آه من فى غدٍ سوف يرفع هَامتَهُ
غير من طأطأوا حين أزَّ الرصاصُ ؟

ومن سوف يخطُب — فى ساحة الشهداءِ —
سوى الجبناءِ ؟
ومن سوف يُغوى الأراملَ إلا الذى
سيؤول اليه [illegible]راجُ المدينةْ !!؟

(الاصحاح الثانى)

أرشق فى الحائطِ حد المطواه
والموت يهبُّ من الصحف الملقاة
اتجزَّأ فى المرآة
يصفعنى وجهى المتَخَفِّىَ تحت قناع النفط
« من يجرؤُ أن يضع الجرَسَ الأوَّلَ فىْ عنق القط ؟ »

(الاصحاح الثالث)

منظرٌ جانبىٌّ لفيروز
(وهى تطلُّ على البحرِ من شرفة الفجرِ)
لبنان فوق الخريطةْ :
منظر جانبىٌّ لفيروز ،
والبندقيةُ تدخلُ كلَّ بيوت (الجنوبْ)

مطرُ النار يهطلُ ، يثقبُ قلباً .. فقلباً
ويتركُ فوق الخريطةِ ثقباً .. فثقباً
وفيروزُ فى أغنياتِ الرعاةِ البسيطةْ
تستعيد المراثى لمن سقطوا فى الحروب
تستعيدِ الجنوب !

(الاصحاح الرابع)

البسمةُ حلمْ
والشمسُ هى الدينارُ الزائفْ
فى طَبَقِ اليومْ
(منِ يمسحُ عنى عَرَقى فى هذا اليوم الصائفْ)
والظلُّ الخائفْ
يتَمَدَّدُ من تحتى ؛
يفصل بين الأرضِ .. وبينى !
وتضاءلتُ كحرفٍ ماتَ بأرض الخوفْ
(حاءْ .. باءْ)
(حاءٌ .. راءٌ .. ياءٌ .. هاءْ)
الحرفُ : السيفْ
مازلتُ أرودُ بلادَ اللَّونِ الداكنْ

ابحث عنه بين الاحياءِ الموتى والموتى الاحياء
حتى يَرتدَّ النبضُ إلى القلبِ الساكنْ
لكنْ .. !!

(الاصحاح الخامس)

منظرٌ جانبيٌ لعمَّانَ عامَ البكاءْ
والحوائطُ مرشوشةٌ ببقايا دمٍ لعقته الكلابُ
ونهودُ الصبايا مصابيح مطفأة فوق أعمدة الكهرباءْ
منظرٌ جانبيٌ لعمَّانَ ؛
والحرسُ الملكيُ يفتّشُ ثوبَ الخليفةِ
وهو يسير إلى « إيلياءْ »
وتغيبُ البيوتُ وراء الدخانْ
وتغيبُ عيونُ الضحايا وراء النجومِ الصغيرةِ
فى العلمِ الأجنبيِّ ،
ويعلو وراءَ نوافذِ « بسمانَ » عزفُ البيانْ

(الاصحاح السادس)

إشترى فى المساءْ

قهوةً ، وشطيرة
واشترى شمعتين . وغَدَّارةً ؛ وذخيرة
وزجاجةَ ماءْ
... ...
عندما أطلقَ النارَ كانتْ يدُ القدس فوق الزنادْ
(ويدُ الله تخلع عن جسدِ القدسِ ثوبَ الحداد)
ليس من أجل أن يتفجَّرَ نفطُ الجزيرة
ليس من أجل أن يتفاوضَ من يتفاوضُ
من حول مائدةٍ مستديرة
ليس من أجلِ أن يأكلَ السادةُ الكسْتناءْ .

(الاصحاح السابع)

ليغفر الرصاصُ من ذنبكَ ما تأخَّرْ
ليغفر الرصاصُ .. ياكيسنْجَرْ

ســفر الف دال

(الاصحاح الأول)

القطاراتُ ترحل فوق قضيبينِ : ما كانَ ــ ماسيكونْ !
والسماءُ رمادٌ ، به صنع الموتُ قهوتَهُ ،
ثم ذَرَّاه كى تَتَنَشَّقَه الكائناتُ
فينسلّ بين الشرايين والأفئدهْ .
كلُّ شيءٍ ــ خلال الزجاج ــ يَفِرُّ :
رذاذُ الغبارِ على بقعة الضوءِ ،
أغنيةُ الريحِ ،
قَنطرةُ النهرِ ،
سربُ العصافيرِ والأعمدهْ .
كلُّ شيءٍ يَفِرُّ ،
فلا الماءُ تمسكه اليدُ ،
والحُلْمُ لا يتبقَّى على شرفات العيونْ .
... ...

والقطاراتُ ترحلُ ، والراحلونْ
يَصِلُونَ .. ولايَصِلُونْ !

(الاصحاح الثانى)

سنترال :
أعطِ للفتياتِ
(اللواتى يَتمْنَ إلى جانب الآلةِ الباردةِ
شارداتِ الخيالْ)
رقمى ــ رقمَ الموتِ ــ حتى أجيءَ إلى العُرْسِ
ذى الليلةِ الواحدةْ !
أعطهِ للرجالْ ..
عندما يلثُمون حبيباتهم فى الصباحْ ،
ويرتحلونَ إلى جَبَهاتِ القتالْ !

(الاصحاح الثالث)

الشهورُ زُهورٌ على حافةِ القلبِ تنمو
وتُحرقها الشمسُ ذاتُ العيون الشتائيَّة المطفأهْ
زهرةٌ فى إناءْ
تتوهَّجُ فى أوَّلِ الحبّ بينى وبينكِ

تصبح طفلاً .. وأرجوحةً .. وامرأةً .
زهرة فى الرداء
تَتَفَتَّحُ أوراقُها فى حياءْ
عندما نَتَخاصَرُ فى المشية الهادئة .
زهرة من غناء
تتورَّدُ فوق كمنجاتِ صوتكِ
حين تفاجئكِ القبلةُ الدافئة
زهرةٌ من بكاء
تتجمَّدُ فوق شجيرة عينيكِ فى لحظاتِ الشجار الصغيرةِ ،
أشواكُها : الحزنُ والكبرياءْ .
... ...
زهرةٌ فوق قبرٍ صغيرْ
تنحنى ؛ وأنا أتحاشى التطلعَ نحوكِ ..
فى لحظات الوداع الأخير
تتعرَّى ؛ وتلتفُّ بالدمع فى كلِّ ليلٍ إذا الصمتُ جاءْ
لم يَعُدْ غيرُها من زهور المساء
هذه الزهرةُ ــ اللؤلؤةْ !

(الاصحاح الرابع)

تحبل الفتياتْ
فى زيارات أعمامهنَّ إلى العائلةْ
ثم يجْهضهنَّ الزحامُ على سُلَّم « الحافِلةْ »
وترام الضجيج !

• • •

تذهبُ السيداتْ
ليُعَالِجْنَ أسنانَهنَّ فَيُؤْمِنَّ بالوحدة الشاملة !
ويُجِدْنَ الهوى بلسان « الخليج » ؟

• • •

يا أبانا الذى صار فى الصيدليَّات والعُلبِ العازلة
نَجِّنا من يد « القَابِلة »
نَجِّنا . حين نَقْضِم ــ فى جنَّة البؤسِ ــ تفَّاحَةَ العرباتْ
وثيابِ الخروجْ !!

(الاصحاح الخامس)

تصرخين .. وتخترقين صفوفَ الجنودْ
نتعانق فى اللحظاتِ الأخيرةِ ،
فى الدرجاتِ الأخيرةِ .. من سلّم المقصلةْ .
أتحسَّسُ وجهكِ !
(هل أنت طفلتىَ المستحيلةُ أم أمّىَ الأرملةْ ؟)
أتحسسُ وجهكِ !
(لم أكُ أعمى ..
ولكنهم أرفقُوا مقلتى ويدى بمَلَفّ اعترافى
لتنظره السلُطاتُ ..
فتعرفَ أنّىَ راجعتُه كلمةً .. كلمةً ..
ثم وَقَّعْتُه بيدى ..
ــ ربما دسَّ هذا المحقِّقُ لى جملةً تنتهى بى إلى الموتِ ! ــ
لكنهم وعدوا أن يعيدوا إلىَّ يدىَّ وعينىَّ بعد
انتهاء المحاكمة العادلةْ !)
زمن الموتِ لا ينتهى يا ابنتى الثاكلةْ
وأنا لستُ أوّلَ من نبَّأ الناسَ عن زمن الزلزلةْ
وأنا لستُ أول من قال فى السوقِ :
ان الحمامةَ ــ فى العُشّ ــ تحتضن القنبلةْ !
قَبّلينى ؛ لأنقلَ سرّى إلى شفتيكِ ،

لأنقل شوق الوحيد
لك ، للسنبلة
للزهور التى تَتَبْرعمُ فى السنة المقبلة
قبِّلينى .. ولا تدمعى !
سُحُبُ الدمع تحجبنى عن عيونك ..
فى هذه اللحظة المثقلة
كثُرَتْ بيننا السُتُرُ الفاصلة
لا تُضيفى إليها ستاراً جديد !

(الاصحاح السادس)

كان يجلسُ فى هذه الزاوية .
كان يكتب ، والمرأة العارية
تتجوَّل بين الموائد ؛ تعرض فتنتَها بالثمن .
عندما سألَتْه عن الحربِ ، قال لها ..
لا تخافى على الثروة الغالية
فعَدوُّ الوطنْ
مثلنا يختَتِنْ
مثلنا .. يعشقُ السّلَعَ الأجنبيَّة ،

يكره لحمَ الخنازيرِ ،
يدفعُ للبندقيَّةِ .. والغانيةْ .
.. فبكتْ !
... ...
كان يجلس فى هذه الزاويةْ .
عندما مرَّت المرأةُ العاريةْ
ودعاها ؛ فقالت له إنها لن تُطيل القُعودْ
فهى منذ الصباح تُفتّشُ مستشفياتِ الجنودْ
عن أخيها المحاصرِ فى الضفَّة الثانيةْ
(عادت الأرضُ .. لكنّه لا يعودْ !)
وحكَتْ كيف تحتملُ العبءَ طيلة غربته القاسيةْ
وحكت كيف تلبس — حين يجىءُ — ملابسها الضافية
وأرَتْهُ له صورةً بين أطفاله .. ذاتَ عيد
.. وبكت !!

(الاصحاح السابع)

أشعر الآنَ أنى وحيدٌ ؛
وأن المدينةَ فى الليلِ ..

(أشباحَها وبناياتها الشاهقة)
سفنٌ غارقة
نهبتْها قراصنةُ الموتِ ثم رمْتها إلى القاعِ منذ سنينْ .
أسند الرأسَ ربَّانُها فوق حافتها ،
وزجاجةُ خمرٍ محطمةٌ تحت أقدامِهِ
وبقايا وسام ثمين .
وتشبَّث بحارةُ الأمس فيها بأعمدة الصمتِ فى الأروقة
يتسلَّل من بين أسماهم سمكُ الذكريات الحزينْ .
وخناجرُ صامتةٌ ..
وطحالبُ نابتةٌ ..
وسلالٌ من القطط النافقة .
ليس ما ينبض الآن بالروحِ فى ذلك العالم المستكينْ
غير ما ينشرُ الموجُ من عَلَمٍ .. كان فى هبّة الريح
والآن يفرك كفَّيْه فى هذه الرقعةِ الضيِّقة
سيظلُّ على السارياتِ الكسيرةِ يخفقُ ..
حتى يذوبَ .. رويداً .. رويداً ..
ويصدأ فيه الحنينْ
دون أن يلثمَ الريح ثانيةً ، أو يرى الأرضَ ،
أو يتنهَّد .. من شمسها المحرقة !

(الاصحاح الثامن)

آه .. سيدتى المسبلةْ
آه .. سيدةَ الصمت واللفتات الودودْ
لم يكن داخلَ الشقّة المقفلَة
غير قطٍ وحيدْ .
حين عادت من السوق تحمل سلّتها المثقلة
عرفت أن ساعى البريدْ
مرّ ..
(فى فتحةِ البابِ كان الخطابُ
طريحاً ..
ككابِ الشهيدْ !)
قفز القطُّ فى الولوله
قفزت من شبابيك جيرانها الأسئلة
... ...
آه .. سيدةَ الصمتِ والكلمات الشرّودْ
آه .. أيتها الأرملة !

(الاصحاح التاسع)

دائما .. حين أمشى ؛ أرى السُّترةَ القرمزيَّة
بين الزحام .
وأرى شعركِ المتهدِّل فوق الكتف .
وأرى وجهك المتبدِّل .. فوق مرايا الحوانيتِ ،
فى الصُّور الجانبيَّةِ ،
فى نظرات البنات الوحيداتِ ،
فى لمعان خدود المحبين عند حلول الظلامْ .
دائماً أتحسَّسُ ملمسَ كفِّك فى كلِّ كفّ .
المقاهى التى وهبَتْنا الشرابَ ،
الزوايا التى لا يرانا بها الناسُ ،
تلك الليالى التى كان شعركِ يبتلُّ فيها ..
فتختبئين بصدرى من المطرِ العصبى
الهدايا التى نتشاجر من أجلها ،
حلقاتُ الدخان التى تتجمَّعُ فى لحظات الخصام
دائما أنت فى المنتصف !
أنت بينى وبين كتابى ..
وبينى وبين فراشى ..
وبينى وبين هدوئى ..
وبينى وبين الكلام .

ذكرياتُكِ سجنى ، وصوتكِ يجلدنى
ودمى قطرةٌ — بين عينيكِ — ليست تجفْ !
فامنحينى السلام !
امنحينى السلام !.

(الإصحاح العاشر)

الشوارعُ فى آخر الليل .. آه
أراملُ متشحاتٌ يُنَهْنِهْنَ فى عتباتِ القبورِ — البيوتْ .
قطرةٌ .. قطرةٌ ، تتساقط أدمُعُهنّ مصابيحَ ذابلةً
تتشبث فى وجنةِ الليل ثم .. تموتْ !
... ...
الشوارع فى آخر الليل .. آه
خيوطٌ من العنكبوتْ .
والمصابيح — تلك الفراشاتُ — عالقةٌ فى مخالبها
تتلوّى .. فتعصرها ، ثم تَنْحَلُّ شيئاً . فشيئاً
فتمتصُّ من دمها قطرةً .. قطرةً ؛
فالمصابيحُ قُوتْ !
.. ..
الشوارع فى آخر الليل .. آه

أفاعٍ تنام على راحةِ القمر الأبديِّ الصَّموتْ .
لَمَعَانُ الجلودِ المفضَّضةِ المستطيلة يغدو مصابيحَ
مسمومةَ الضوءِ ، يغفو بداخلها الموتُ ،
حتى إذا غرب القمرُ : انطفأتْ
وغَلى فى شرايينها السمُّ
تنزفُه قطرةً .. قطرة ؛ فى السكونِ المميتْ !
... ...
... ...
وأنا كنتُ بين الشوارع وحدى !
وبين المصابيح وحدى !
أتصبَّب بالحزن بين قميصى وجلْدى
قطرةً .. قطرةً ؛ كان حبى يموتْ
وأنا خارجٌ من فراديسهِ ..
دون وَرْقَةِ توتْ !!

المزمور الأول

أعشق أسكندريةَ ،
واسكندريةُ تعشقَ رائحةَ البحرِ ،
والبحرُ يعشق فاتنةً فى الضفافِ البعيدةْ !

* * *

كلَّ أمسيةٍ ؛ تتسلل من جانبى
تتجرَّد من كلِّ أثوابها
وتحلُّ غدائرَها
ثم تخرج عاريةً فى الشوارعِ تحت المطرْ !
فاذا اقتربت من سريرِ التنهُّدِ والزُّرْقَةِ
انطرحتْ فى مُلاءاته الرغويَّةِ ؛
وانفتحتْ .. تنتظر !

ممدودةً ـــ كالنداءِ
ومشدودةً ـــ كالوترْ
... ...
وتظلُّ .. وحيدةْ !!

المزمور الثانـــى

قلتُ لها فى الليلة الماطرةْ :
البحرُ عنكبوتْ
وأنتِ ـــ فى شراكه ـــ فراشةٌ تموتْ
وانتفضتْ كالقطة النافرةْ
وانتصبت فى خفقان الريح والأمواجْ
(ثديانِ من زجاجْ
وجسدٌ من عاجُ)
وانفلتتْ مبحرةً فى رحلةِ المجهولِ ، فوق الزَّبَد المُهْتاجْ
ناديتُ .. ما ردَّتْ !
صرختُ .. ما ارتدَّتْ !
وظلَّ صوتِى يتلاشى .. فى تلاشيها ..

وراءَ الموجة الكاسرة)

... ...

(خاسرةٌ ، خاسرةْ
إن تنظرى فى عَيْنَىْ الغريمةِ الساحرة
أو ترفعى عينيكِ نحو الماسةِ التى تزين التاج !)

المزمور الثالث

لفظَ البحرُ أعضاءَها فى صباحٍ أليم
فرأيتُ الكلومْ
ورأيتُ أظافرَها الدمويّة
تتلوّى على خصلةٍ « ذهبيّة »
فحَشَوْتُ جراحاتها بالرمالِ ،
وأدفأتُها بنبيذ الكرومْ ..

... ...

وتعيشُ معى الآنَ !
ما بيننا حائطٌ من وجوم
بيننا نسماتُ « الغريم »
كلَّ أمسيةٍ ..

تتسلل فى ساعة المَد ، فى الساعة القمريَّة
تستريح على صخرةِ الأبديَّة
تتسمَّع سخريةَ الموج من تحت أقدامها
وصفير البواخر .. راحلة فى السَّواد الحميمْ
تتصاعدُ من شفتيها المُملَّحَتَيْن رياحُ السَّمومْ
تتساقط أدمعها فى سهومْ
والنجومُ
(الغريقة فى القاع)
تصعدُ .. واحدةً .. بعد أخرى ..
فتلقطها
وتَعُدُّ النجومْ
فى انتظار الحبيب القديم !

المزمور الرابع

(ترنيمة لشهر يناير)

فجأةً .. يَجْفُلُ خطوُ القلبِ ،
تهتزُّ الكُرَيّاتُ الرصاصيَّةُ فى سلَّتهِ

(هل إصبعُ الوحدةِ أم اصبعُك المصبوغ بالحنّاءِ ؟)
فى الخارج أسوارٌ وأمطارٌ ،
غلافُ الليل ينشقُّ عن الرعدِ
غلاف القلب ينشقُّ عن الوجدِ
مساحاتٌ من الضوءِ الرماديّ
أنا النافذةُ المغلقةُ السوداءُ
والتفاحةُ الحمراءُ
والأسماءُ
(إسمى كان مكتوباً على طرْف قميصى
قبل أن يَعْلَقَ فى سلكِ الحدودِ الشائكِ !)
النهرُ ضميرى (ولعينيكِ انسيابُ النهرِ)
ما أقسى انتظارى ! ..
وفؤادى ساعةٌ رمليّةٌ صفراءُ
يَهْوى الرملُ فى أعماقها شيئاً فشيئاً
ربما للرملِ طعمُ الملح أحياناً .. وطعم الانتظارْ !!

(المزمور الخامس)

كان فستانُكِ فى الصيفِ من الكتّانِ ،

والزهره فى صدركِ بيضاء ،
ولكن الشتاءَ الآن يكسوكِ بلون السل والنرجس
(حتى ورقةُ التُوتِ على فخذيك .. صفراءُ !)
هل الماءُ يغيضُ الآنَ فى البئرِ ؟
هل الماءُ يفيضُ الآن فى البئرِ ؟
أماءٌ ؟ أمْ دَمٌ ؟
(هذا الندى القاتلُ ذو الوجهين)
كان الناىُ يمتدُّ من الضفَّةِ للضفَّةِ
من صدرك إلى صدركِ
كان الناىُ ممتدّاً
ولونُ الليلِ بين البرتقالى ــ الرّمادىّ ــ السّماوىّ
وفى شعركِ غاباتٌ من الوحشةِ والصمتِ ؛
هوى نجمٌ ؛ وفى الثانيةِ التاليةِ اصطكّتْ يدى
فى الشبح العابرِ
(هل كانت يدى فى يدكِ اليسرى ؟)
وفى الثانيةِ الثانيةِ اصطكّتْ يدى فى كلمة السجنِ
على وجه الجدار !!

المزمور السادس

نحنُ صوتانِ ..
(إذن فالصوتُ قد أصبح صوتينِ !؟)
تنزَّهْنا على خطِّ استواء الموتِ ،
لمْلمنا البنفسجْ
وتسلقْنا شعاعَ الزهوِ ، خَلْخلنا مزاليجَ البيوتْ
وقدَحْنا حَجَرَ الحُبِّ ؛ جلسنا نتوهَّجْ
فاحلفي باسمي ، وباسم العنكبوتْ
باسم نقشِ الذكرياتِ المُتَعرِّجْ
وركامِ الذكرياتِ المدرج
انها ورقةُ توتْ
سقطَتْ عن عورة الصيف ،
وظلتْ تتدحرجْ
فوقفنا نتفرّجْ
(دون أن نَطْرُف) حتى سقطت في النهرِ ..
وارتدَّ السكوتُ !

المزمور السابع

جاء الاناسُ الميتونَ ، يحملونَ
كفانهم ؛ أطيارُهم ليست إلى أعناقهم ؛

يستفسرون :
« ماذا أتى بنا هنا ؟! »
أتت بكم امرأةٌ خاطئةٌ
نهودُها دافئةٌ
ولحمُها مُعطِرُ النَّكْهةْ
قد استدارت في فراشها برهة
عانقت الجدارَ ، قبَّلت وَجْهَه
« يا أيُّها الجدارُ .. لا تَبُحْ بما ترى
ولا تَقُلْ عن الذين يولدونْ
وغمغم الجدارُ :
يا صديقتي الطفلة
ماتَ الذين يسألون !
... ...
ومرَّت الليلة
فربما كان أباكُم الجدار ،
ربما يكون !

المزمور الثامن
(شجوية)

لماذا يتابعنى أينما سرتُ صوتُ الكَمانْ ؟
أسافرُ فى القاطراتِ العتيقةِ ،
(كى أتحدَّث للغرباء المُسِنِّينَ)
أرفع صوتى ليطْغى على ضجَّة العجلاتِ
وأغفو على نبضاتِ القطارِ الحديديَّةِ القلبِ
(تهدر مثل الطواحين)
لكنها بغتةً .. تتباعدُ شيئاً فشيئا
ويصحو نداءُ الكمان !

° ° °

أسيرُ مع الناسِ ، فى المهرجانات :
أصغى لبوقِ الجنودِ النُحاسىِّ
يملأُ حلقى غبارُ النشيدِ الحماسىِّ
لكننى فجأةً .. لا أرى !
تتلاشى الصفوفُ أمامى
وينسربُ الصوت مبتعداً
ورويداً .. رويداً يعود إلى القلب صوتُ الكمانْ

لماذا إذا ما تهيَّأْتُ للنوم يأتى الكَمان ..
فأصغى له آتياً من مكان بعيد
فتصمت همهمةُ الريح خلف الشبابيكِ ،
نبضُ الوسادةِ فى أذنى
تتراجعُ دقاتُ قلبى ،
وأرحل فى مدن لم أزُرْها
شوارعُها فضةٌ .
وبناياتُها من خيوطِ الأشعَّةَ .
ألْقى التى واعَدَتْنى على ضفَّةِ النهرِ واقفة !
وعلى كتفيها يحطُّ اليمامُ الغريبُ
ومن راحتيها يغط الحنانْ !
أحبُّك ، صارَ الكمانُ كعوبَ بنادقْ
وصارَ يمامُ الحدائقْ .
قنابلَ تسقط فى كلِّ آنْ
... ...
وغَابَ الكمانْ !

(الورقة الأولى)

« ملكٌ أم كتابةْ ؟ »
صاحَ بى صاحبى ؛ وهو يُلقى بدرْهمِهِ فى الهواءْ
ثم يَلقفُهُ ..
(خارَجيْن من الدرس كُنّا .. وحبْرُ الطفولةِ فوق الرداءْ
والعصافيرُ تمرقُ عبرَ البيوتِ ،
وتهبطُ فوق النخيلِ البعيدْ !)
... ...
« ملكٌ أم كتابة ؟ »
صاحَ بى .. فانتبهتُ ، ورفَّتْ ذُبابه
حولَ عينيْن لامعتيْن ..
فقلتُ : « الكتابةْ »
... فَتَحَ اليدَ مبتسما ؛ كان وجهُ المليكِ السعيدْ
باسماً فى مهابة !

• • •

« ملكٌ أم كتابة ؟ »
صحتُ فيه بدورى ..
فرفرفَ فى مقلتيه الصبا والنجابة
وأجابَ : « الملكْ »
دون أن يتلعثمَ .. أو يرتبكْ
وفتحتُ يدى ..
كان نقشُ الكتابة
بارزاً فى صلابة !
دارت الأرضُ دورتَها ..
حمَلَتْنا الشواديفُ من هدأةِ النهرِ
ألقتْ بنا فى جداولِ أرض الغرابة
نتفرَّق بين حقولِ الأسى .. وحقولِ الصبابة .
قطرتيْن ؛ التقينا على سُلَّم القصرِ ..
ذاتَ مساءٍ وحيدْ
كنتُ فيه : نديمَ الرشيد

(الورقة الثانية)

من يملكُ العملةَ يُمسكُ بالوجهيْن
والفقراءُ بَيْنَ بيْنْ !

(الورقة الثالثة)

نائماً كنتُ جانبَه ؛ وسمعتُ الحرسْ
يوقظون أبى !
ــ خارجىٌّ
ــ أنا .. !
ــ مارقٌ
ــ من ؟ أنا !
صرخَ الطفلُ فى صدر أمّى
(وأمّى محلولةُ الشعر واقفةٌ فى ملابسها المنزلية)
ــ إخرسوا
واختبأْنا وراءَ الجدارِ

ــ اخرسوا
وتسللَ فى الحلقِ خيطٌ من الدمِ.
كان أبى يمسكُ الجرحَ ،
يمسكُ قامته .. ومَهَابَته العائليَّة !
ــ يا أبى
ــ اخرسوا
وتواريت فى ثوب أمِّىَ ، والطفلُ فى صدرها مائبَسْ
ومضوا بأبى تاركين لنا اليم متشحاً بالخرس

(الورقة الرابعة)

أيها الشعرُ .. يا أيها الفرح.المُختَلَسْ
... ...
كل ما كنتُ أكتبُ فى هذه الصفحة الوَرَقيَّة
صادرته العسسْ
... ...

(الورقة الخامسة)

... وأمى خادمةٌ فارسيَّه
يتناقلُ سادتُها قهوةَ الجنسِ وهى تدير الحطبْ
يتبادلُ سادتُها النظرات لأردافها ..
عندما تنحنى لتُضىءَ اللهبْ
يتندَّر سادتُها الطيِّبون بلهجتها الأعجميَّة !

* * *

نائماً كنت جانبَها ، ورأيتُ ملاكَ القُدُسْ
ينحنى ، ويُرَبِّتُ وجنتَها
وتراخى الذراعانِ عنى قليلاً
وسارت بقلبى قُشَعْريرةُ الصمتِ
ــ أمّى ؛ وعادَ لى الصوتُ
ــ أمّى ؛ وجاوبنى الموتُ
ــ أمّى ؛ وعانقتها .. وبكيت
وغامَ بى الدمعُ حتى احتَبَسْ !

* * *

(الورقة السادسة)

لا تسألنى إن كانَ القُرآنْ
مخلوقاً أو أزَلىّ
بل سَلْنى إن كان السلطانْ
لصاً .. أو نصفَ نبىّ

(الورقة السابعة)

كنتُ فى كربلاءْ
قال لى الشيخُ أن الحسينْ
ماتَ من أجل جرعةِ ماءْ
... ...
وتساءلتُ كيف السيوفُ استباحت بنى الأكرمينْ
فأجابَ الذى بصَّرته السماءْ
إنه الذهبُ المتلألئُ فى كلِّ عينْ
... ...
إن تكن كلماتُ الحسينْ
وسيوفُ الحسينْ

وجلالُ الحسينْ
سَقَطَتْ دون أن تُنقذ الحقَّ من ذهبِ الأمراءْ
أفتقدر أن تنقذَ الحقَّ ثرثرةُ الشعراء
والفراتُ لسانٌ من الدم لايجدُ الشفتينْ ؟!

• • •

ماتَ من أجل جرعة ماءْ
فاسقنى ياغلام صباح مساء
اسقنى ياغلام ..
علني بالمدام ..
أتناسى الدماء !

رســـوم فى بهــو عربــى

(١)

اللّوحةُ الأُولى على الجدار :
ليلى « الدمشقيّة »
من شرفةِ « الحمراءِ » ترنو لمغيبِ الشمسِ ،
ترنو للخيوطِ البُرتقاليّة
وكرمةٌ أندلسيّةٌ ، وفسقيّةٌ
... ...
وطبقاتُ الصمتِ والغبار !
نقش
(مولاى ، لا غالبَ إلا الله !)

(٢)

اللوحةُ الأخرى .. بلا إطارْ :
للمسجدِ الأقصى .. (وكانَ قبلَ أن يحترقَ الرُّواقْ)
وقبةِ الصخرةِ ، والبُراقْ
وآيةٍ تآكلتْ حروفُها الصغار !

نقش

(مولاىَ ، لا غالبَ إلا .. النّار !)

(٣)

اللوحةُ الداميةُ الخطوطِ ، والواهيةُ الخيوطْ :
لعاشق محترقِ الأجفانْ
كان اسمُه « سَرْحان »
يمسكُ بندقيةً .. على شَفَا السُّقوطْ

نقش

(بينى وبين الناسِ تلكَ « الشَّعْره »
لكن من يقبضُ فوقَ الثورة
يقبضُ فوق الجمرة !)

اللوحةُ الأخيرة :
خريطةٌ مبتورةُ الأجزاء
كان اسمُها « سيناء »
ولطخةٌ سوداءْ
تملأ كل الصورة

نقش

(الناسُ سواسيةٌ ـــ فى الذلّ ـــ كأسنانِ المشْطْ
ينكسرون ـــ كأسنان المشطْ
فى لحيةِ شيخِ النفطْ !)

° ° °

كتابة فى دفتر الاستقبال :
لا تسألى النيلَ أن يُعطى وأن يَلِدَا
لا تسألى .. أبدا
إنّى لأفتحُ عينى (حين أفتحُها !)
على كثيرٍ .. ولكنْ لاأرى أحدا !!

« خـــاتمـة »

آه .. من يُوقفُ فى رأسى الطواحينَ ؟
ومن ينزعُ من قلبى السكاكينَ ؟
ومن يقتلُ أطفالى المساكينَ ..
لئلاّ يكبروا فى الشُّقَقِ المفروشةِ الحمراء
خدّامينَ ..
مأبونينَ ..
قوّادينَ ..
من يقتلُ أطفالى المساكينَ ؟
لكيلا يصبحوا ــ فى الغدِ ــ شحّاذينَ ..
يستجدون أصحابَ الدكاكينِ
وأبوابَ المرابينَ

يبيعون لسياراتِ أصحابِ الملايينِ .. الرياحينَ
وفى « المترو » يبيعون الدبابيسَ و« يس »
وينسلُّون فى الليل يبيعون « الجَعَارينَ »
لأفواج الغزاة السائحينْ !

... ...

هذه الأرضُ التى ما وَعَدَ اللهُ بها ..
مَنْ خرجوا من صُلْبها ..
وانغرسوا فى تربْها ..
وانطرحوا فى حُبِّها ..
مُسْتَشهَدين !

... ...

... ...

فادخلوها « بسلامٍ » آمنين !!

أقوال جديدة
عن
حرب البسوس

مقتـل كلـيب
« الوصايا العشر »

.. فنظر « كليب » حواليه وتحسر ، وذرف دمعةً وتعبَّر ، ورأى عبداً واقفاً فقال له : أريد منك ياعبد الخير ، قبل أن تسلبنى ، أن تسحبنى إلى هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير ، لأكتب وصيتى إلى أخى الأمير سالم الزير ، فأوصيه بأولادى وفلذة كبدى ..

فسحبه العبد إلى قرب البلاطة ، والرمح غارس فى ظهره ، والدم يقطر من جنبه .. فغمس « كليب » إصبعه فى الدم ، وخطَّ على البلاطة وأنشأ يقول ..

لاتصالح

(١)

لاتُصالحْ !

.. ولو منحوكَ الذهَبْ

أترى حين أفقأُ عينيكَ ،

ثم أثبتُ جوهرتين مكانَهما ..

هل ترى .. ؟

هى أشياءُ لاتُشترى .. :

ذكرياتُ الطفولةِ بين أخيكَ وبينكَ ،

حسُّكُما — فجأةً — بالرجولةِ ،

هذا الحياءُ الذى يكبتُ الشوقَ .. حين تعانقُهُ ،

الصمتُ — مبتسمَين — لتأنيب أمّكما ..

وكأنكما

ما تزالانِ طفليْنِ !

تلك الطمأنينةُ الأبديّةُ بينكما :

أنّ سيفانِ سيفَكَ ..

صوتانِ صوتَكَ

أنك إنْ متَّ :

للبيت ربٌّ

وللطفلِ أبْ .

هل يصيرُ دمى — بين عينيكَ — ماءً ؟

أتنسى ردائى الملطَّخَ ..

تلبسُ — فوق دمائى — ثياباً مطرّزَةً بالقصبْ ؟

إنها الحربُ !

قد تثقلُ القلبَ ..

لكنّ خلفكَ عارَ العربْ .

لا تصالحْ ..

ولا تتوخَّ الهرَبْ !

(٢)

لاتصالح على الدمِ .. حتى بدمْ !
لاتصالحْ ! ولوْ قِيلَ رأسٌ برأسٍ ،
أكُلُّ الرؤوسِ سـواءٌ ؟ !
أقلب الغريبِ كقلبِ أخيكَ ؟ !
أعينـاه عينا أخيكَ ؟ !
وهـل تتساوى يدٌ .. سيفُها كَان لَكْ
بيدٍ سيفُها أثْكَلَـكْ ؟

سيقولـونَ :
جئنـاكَ كى تحقَن الدَّم ..
جئنـاكَ . كُنْ ـــ ياأميُر ـــ الحَكَمْ

سيقولـون :
ها نحـن أبنـاء عـمْ .
قل لهم : إنهم لم يُراعوا العمومةَ فيمن هَلَكْ .
واغرس السيفَ فى جبهة الصَّحْـراءِ ..
إلى أن يجيبَ العَدمْ .
إننى كنتُ لَكْ .
فارسـاً .

وأخـاً .
وأبـاً .
ومَلِـكْ !

(٣)

لاتصالح ..
ولو حَرمَتْكَ الرقادْ
صرخـاتُ الندامةْ .
وتذكَّرْ ..
(إذا لَان قلبُك للنسوةِ اللابساتِ السوادْ ولأطفالهنَّ الذين تخاصمهـم الابتسامــة)
أن بنتَ أخيكَ « اليمامة »
زهرةٌ تتسربـل ـــ فى سنوات الصبـا ـــ
بثيابِ الحداد .

كنتُ ، إن عـدتُ :
تعـدو على دَرَجِ القصـرِ ،
تمسكُ ساقىَّ عند نزولـى ...
فأرفعهـا ـــ وهى ضاحكـةٌ ـــ
فوق ظهـر الجـوادْ .

ها هى الآن .. صامتـةٌ .
حرمتها يدُ الغـدرِ :
من كلمـاتِ أبيهـا ،
أرتداءِ الثياب الجـديدةِ ،

من أن يكون لهـا ــ ذات يـوم ــ أخٌ !
من أبٍ يَتَبَسَّمُ فى عرسهـا ..
وتعوُد إليـه إذا الزوجُ أغضبهـا ..
وإذا زارها .. يتسابق أحفادُه نحو أحضانهْ ،
لينالـوا الهدايـا ..
ويلهوا بلحيتـه (وهو مستسلمٌ)
ويشُـدوا العمامـة .
لا تصالـحْ !
فما ذنـبُ تلك اليمامة
لترى العشَّ محترقاً .. فجأةً ،
وهـى تجلس فوق الرمادْ ؟ !

(٤)

لاتصالـحْ
ولو تُّوجوكَ بتاج الإمارة .
كيـف تخطو على جثـةِ ابنِ أبيكَ .. ؟
وكيـف تصيُر المليكَ ..
على أوْجُهِ البهجةِ المستعـارة ؟
كيف تنظر فى يدِ من صافحوكَ ..
فلا تبصـر الدَمَ ..
فى كلِّ كـفْ ؟
ان سهمـاً أتانى من الخلـفْ ..
سـوف يجيئُكَ من ألفِ خَلـفْ .
فالـدمُ ــ الآن ــ صـار وسامـاً وشـارة .
لاتصالـحْ ،
ولـو تُّوجوكَ بتاج الإمارة
إن عرشَكَ : سيــفٌ

وسيفَـكَ : زيـفٌ
إذا لم تَزِنْ ــ بذؤابتـه ــ لحظاتِ الشرفْ
واستطَبتَ ــ الترفْ

(٥)

لاتصالح
ولوْ قال مَنْ مال عند الصدامْ
« .. ما بنا طاقةٌ لامتشاقِ الحسامْ .. »
عندما يملأُ الحقُّ قلبَكَ :

تندلع النارُ إن تتنفَّسْ
ولسانُ الخيانةِ يخْرسْ

لاتصالحْ ،
ولو قيلَ ما قيلَ من كلمات السلامْ .
كيف تستنشقُ الرئتانِ النسيمَ المُدَنَّسْ ؟
كيف تنظرُ فى عينىْ امرأةٍ ..
أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها ؟
كيف تُصْبح فارسَها فى الغرام ؟
كيف ترجو غداً .. لوليدٍ ينام
ـــ كيف تحلم أو تتغنى بمستقبلٍ لغلام
وهو يكبُر ـــ بين يديك ـــ بقلبٍ مُنكَّسْ ؟
لا تصالحْ
ولا تقتسِم مع من قتلوكَ الطعام .

وأروِ قلبَكَ بالدَّم ..
وارو الترابَ المقَّدسْ ..
وارو أسلافَكَ الراقدينَ ..
الى أن تردَّ عليكَ العِظام !

(٦)

لاتصالحْ ،
ولو ناشَدَتْكَ القبيلة
باسم حزنِ « الجليلة »
أن تسوق الدهاءَ ،
وتُبدى ـــ لمن قصدوكَ ـــ القَبُولْ .
سيقولونَ :
ها أنتَ تطلبُ ثأراً يطولْ .
فخُذْ ـــ الآنَ ـــ ما تستطيعُ :
قليلًا من الحقِّ ..
فى هذه السنواتِ القليلة
إنه ليس ثأرَكَ وحدَكَ ،
لكنه ثأر جيلٍ فجيْل .

وعـدا ..
سوف يولدُ من يلبسُ الدرعَ كاملةً ،
يوقد النّار شاملةً ،
يطلب الثأرَ ،
يستولد الحقَّ ،

من أضلعِ المستحيـلْ .

لا تصالـحْ ،
ولو قيلَ إن التصالحَ حيلـةْ .
إنه الثأرُ .
تبهتُ شُعلتهُ فى الضلوعِ ..
إذا ما توالَتْ عليها الفصولْ ..
ثم تبقى يدُ العارِ مرسومةً (بأصابعها الخمسِ)
فـوق الجباهِ الذليلةْ ! .

(٧)

لا تصالـحْ ، ولو حذَّرَتْكَ النجـوْم
ورمى لَكَ كُهَّانُها بالنبأْ ..
كنتُ أغفُر لو أننى مِتُّ ..

ما بين خيطِ الصوابِ وخيطِ الخطأْ .

لم أكـن غازيـاً ،
لم أكـن أتسلَّلُ قربَ مضاربِهِمْ
أو أحومُ وراءَ التخـومْ
لم أمدّ يداً لثمار الكرومْ
أرضَ بستانِهِم لم أطـأْ
لم يَصِحْ قاتلى بى : « انْتَبِهْ » !
كان يمشـى معـى ..
ثم صافحـنى ..
ثم سار قليـلًا
ولكنّه فى الغصونِ أختبأْ !
فجـأةً :
ثَقبَتنى قُشَعْريرةٌ بين ضلعين ..
واهتَزَّ قلبى ـــ كَفُقاعةٍ ـــ وانْفَثَأْ .

وتحاملتُ ، حتى احتلمتُ على ساعدىّ
فرأيتُ : ابنَ عمى الزنـيمْ
واقفاً يتشفَّى بوجهٍ لئيمْ

لم يكن فى يدى حربةٌ ،
أو سلاحٌ قديم ،
لم يكن غيرُ غيظى الذى يَتشكَّى الظَّمأْ .

(٨)

لا تصالحْ ،
إلى أن يعودَ الوجودُ لدورته الدائرة :
النجومُ .. لميقاتِها
والطيورُ .. لأصواتِها
والرمالُ .. لذراتِها
والقتيلُ لطفلته الناظرةْ .
كلُّ شيء تحطَّمَ فى لحظةٍ عابرة :
الصبا ــ بهجةُ الأهلِ ــ صوتُ الحصان ــ التعرُّفُ بالضيفِ ــ همهمةُ القلب حين يرى برعماً فى الحديقة يذوى ــ الصلاةُ لكى ينزلَ المَطَرُ الموسِمىُّ ــ مراوغةُ القلب حين يرى طائرَ الموتِ
وهو يرفرفُ فوق المبارزة الكاسرةْ .
كلُّ شيء تحطم فى نزوةٍ فاجرة .
والذى اغتالنى : ليس ربّاً ..

ليقتلنى بمشيئته
ليس أنبلَ منّى .. ليقتلنى بسكينتِهِ ،
ليس أمهرَ منّى .. ليقتلنى باستدارتِه الماكرةْ

لا تصالحْ ،
فما الصلحُ إلا معاهدةٌ بين ندَّيْن ..
(فى شرف القلبِ)
لا تُنتَقَصْ

والذى اغتالنى مَحْضُ لصْ
سَرَقَ الأرضَ من بين عينَّى
والصمتُ يُطلقُ ضحكته السَّاخِرةْ !

(٩)

لا تصالحْ ،
ولو وَقَفَتْ ضدَّ سَيْفِكَ كلُّ الشيوخْ ،
والرجالُ التى ملأتها الشروخْ ،
هؤلاء الذين يُحبُّون طعَم الثريدْ ،
وامتطاءَ العبيدْ ،

هؤلاء الذين تدلّتْ عمائمُهم فوق أعينهم ،
وسيُوفهُـم العربيَّةُ قد نَسِيتْ سنواتِ الشموخْ
لا تصالـحْ ،
فليس سوى أن تريدْ .
أنت فارسُ هذا الزمانِ الوحيـدْ
وسواكَ .. المسـوخ !

(١٠)

لاتصالـحْ
لاتصالـحْ !

نوفمبر « تشرين الثانى » ١٩٧٦

« أقـوال اليمامـة »

« فلما جاءته الوفود ساعية الى الصلح ، قال لهم الأمير سالم أصالح اذا صالحت اليمامة . فقصدت الى اليمامة أمها الجليلة ومن معها من نساء سادات القبيلة ، فدخلن اليها ، وسلمن جميعا عليها ، وقبلت الجليلة بنتها وقالت : أما كفى ؟ فقد هلكت رجالنا وساءت أحوالنا وماتت فرساننا وأبطالنا . فأجابتها اليمامة : أنا لا أصالح ، ولو لم يبق أحد يقدر أن يكافح .. »

(١)

أبى .. لا مزيدْ !

أريدُ أبى ، عند بوابةِ القصرِ ،

فوقَ حصانِ الحقيقةِ ،

منتصباً .. من جديدْ

. . .

ولا أطلبُ المستحيلَ ، ولكنَّهُ العدلُ :

هل يرثُ الأرضَ الا بنُوها ؟

وهل تتناسى البساتينُ من سكنُوها ؟

وهل تتنكرُ أغصانها للجذورِ ..

(لأن الجذورَ تهاجرُ فى الاتجاهِ المعاكسِ ؟!)

هل تترنَّم قيثارةُ الصمتِ ..

الا إذا عادتَ القوسُ تذرعُ أوتارهَا العصبيَّة ؟

والصدرُ ! حتَّى متى يتحملُ أن يحبس القلبَ ..

قلبى الذى يشبهُ الطائر الدموِّى الشريدْ ؟

... ...

هِىَ الشَّمسُ ، تلكَ التَّى تطلعُ الانَ ؟

أم أنَّها العينُ — عينُ القتيلِ — التى تتأمَّل شاخصةً :

دَمَهُ يترسَّبُ شيئاً فشيئاً ..

ويخضُرّ شيئاً فشيئاً ..

فتطلعُ من كلِّ بقعةِ دمٍ : فمُ قرمزىّ ..

وزهرةُ شرٍّ ..

وكفَّانِ قابضتانِ على منجلٍ منْ حديد ؟

هِىَ الشمسُ ؟ أمْ أنها التاجُ ؟

هذا الذِىْ يتنقَّلُ فوقَ الرؤوسِ الى أنْ يعودَ

الى مفرقِ الفارسِ العربىِّ الشهيد ؟

... ...

أقولُ لكُمْ : أيُّها الناسُ كونُوا أناساً !

هِىَ النارُ ، وهِىَ اللسانُ الذّى يتكلَّمُ بالحقِّ !

ان الجروحَ يطهِّرُها الكَىُّ ،

والسيفَ يُصقله الكَيرُ ،

والخبزَ يُنضجه الوهجُ ،

لاتدخلوا معمدانيّة الماءِ ...
بل معمدانيّـة النـار ..
كونُوا لها الحطبَ المُشتهَى والقلوبَ : الحجـارةَ ،
كونُوا .. الى أنْ تعودَ السماواتُ زرقـاءَ ،
والصحراءُ بتـولًا ..
تسيرُ عليْها النجومُ محمّلةً بسـلال الورودِ .

... ...

أقولُ لكمْ : لا نهايةَ للدّمِ ..
هَلْ فى المدينةِ يضربُ بالبوقِ ، ثم يظلُّ الجـ
على سررِ النوْمِ ؟
هـل يرفعُ الفخُّ من ساحةِ الحقلِ .. كَى تطمئنَّ العصافيرُ
انَّ الحمـامَ المطوقَ ليس يقدمُ بَيضَتهُ للثعابـين ..
حتى يسودَ السلام ؟
فكيف أقدِّمُ رأسَ أبى ثمناً ؟
من يطالبنى أن أقدِّم رأسَ أبى ثمناً .. تمرُّ القوافلُ آمنـةً
وتبيـع بسوقِ دمشقَ : حريرا من الهنـدِ ،
أسلحةً من بخـارَى
وتبتـاعُ من بيتِ جـالا العبيـدَ ؟

« مراثى اليمامة »

صـارَ ميراثُنـا فى يدِ الغرباءِ .
وصـارت سيوفُ العدُّو : سقـوفَ منازلنـا .
نحْن عبَّادُ شمسٍ يشيرُ بأوراقِهِ نَحْوَ أرْوِقَةِ الظلِّ .
إن التُويجَ الذى يتطـاولُ :
يخرقُ هامتهُ السقفُ ،
يَخرطُ قامَتهُ السيفُ ،
إن التُويجَ الذى يتطـاولُ :
يسقط فى دَمِهِ المُنْسَكِبْ !
نستقى ـــ بعد خيل الأجانب ـــ من مِياه أبارِنـا .
صـوفَ حملاننـا ليسَ يلتفُ إلا علىَ مغزلِ الجزيْةِ .
النـارُ لاتتوهجُ بينَ مضاربِنـا .
بالعيونِ الخفيضَةِ نستقبلُ الضيفَ .

أبكارُنا ثيباتٌ ..
وأولادُنا للفراشِ ..
ودراهِمُنا فوقها صورةُ المِلكِ المُغتصِبْ .
أيادى الصبايا الحنائنُ تضمُّ على صدرِهِ نصفَ ثوبْ .
وتبقَى عيونُ كليبٍ مسمَّرةً فى شواشى الجنائنْ .

أسائلُ :
من للصغارِ الذين يَطيرونَ — كالنَّحلِ — فوقَ التلال ؟
ومن للعذارى اللَّواتى جَعلنَ القلوبَ :
قواريرَ تحفظُ رائحةَ البرتقال ؟

ومن سيروِّضُ مُهْرَ الخيالِ ؟
ومنْ سيضمِّدُ — فى آخرِ الصيْد — جُرْحَ الغزالِ ؟
ومنْ للرجالِ ..
إذا قيلَ « ما نسبُ القومِ » ؟ ...
فانسكبتْ فى خدودِ الرِّمالِ دموعُ السؤالِ ؟
بناتُ أبى — الزهراتُ الصغيراتُ — يسألننى
لم أبكى أبى !
ويبكينَ مثلى ،

ويخلُدنَ للنَّومِ حين أغالبُ دمعى ،
وأروى لهنَّ الحكايا
عَنْ المَلِكِ النسرِ
والمِلكِ الثعلبِ
فإن نِمْنَ .. جاء أبى .. ليهزَّ الأراجيحَ ..
يلمُس وجناتهنَّ ..
ويعطى لهنَّ اللعبْ ..
ويمضى .. وعيناهُ مسبلتانِ ..
وساقاهُ تشتكيانِ التعبْ ..

أبى ظامىء يارجال
أريقوا له الدمَ كى يرتوى .
وصبُّوا له جرعةً جرعةً فى الفؤادِ الذى يكتوى
عسَى دمُهُ المتسرِّبُ بينَ عروقِ النباتاتِ ،
بين الرِّمالِ ..
يعودُ لهُ قطرةً قطرةً ..
فيعودُ له الزمنُ المنطوِى .

. . . .

(٢)

خصومةُ قلبي مَع اللهِ .. ليسَ سواهُ
أبي أخذَ المُلكَ سيفاً لسيفٍ ، فهلْ يُؤخذُ المُلكُ
منهُ اغتيالاً ،
وقدْ كلّلتهُ يدا اللهِ بالتاجِ ؟ !
هلْ تُنزعِ التاجَ إلا اليدانِ المباركتانِ ،
وهلْ هانَ ناموسَهُ فى البريَّةِ
حتّى يتوجَ لصٌّ .. بما سرقتْهُ يداهُ ؟
خصومةُ قلبى مَع اللهِ ..
إنى أنزّهُ سهمَ منيتِه أن يجيءَ منَ الخلفِ ،
إنَّ الذى يُطلقُ السهمَ ليْسَ هُوَ القوسَ ..
بلْ قلبُ صاحبِهِ ،
والذى يجعلُ النفسَ تستقبلُ الموتَ راضيةً ..نُبْلُ واهبِهِ .
فأنا أرفضُ الموتَ غدراً ..
فهلْ نزلَ اللهُ عَن سهمِهِ الذهبىِّ لمنْ يستهينَ به .
هلْ تكونُ مكانَ أصابعِهِ .. بصماتُ الخطاه ؟

خصومةُ قلبى معَ اللهِ .. ليسَ سواهُ !

كليبٌ يموت ..
ككلبٍ تصادفُهُ فى الفلاة ؟
إذنْ فلماذا كَسا وجهَهُ الصورةَ الآدميةَ ؟
هلْ كرّم اللهُ انسانَهُ ؟
ماتَ من ماتَ كلباً .. فأينَ إذْن ذهبَ الآدمُى الذى قدْ براهُ ؟
خصومةُ قلبي معَ اللهِ
قلبى صغيرٌ كفستقهِ الحزنِ .. لكنّه فى الموازين
أثقلُ من كفّةِ الموتِ
هلْ عرفَ الموتُ فَقْد أبيهِ ،
هلْ اغترفَ الماءَ من جدولِ الدّمعِ ،
هلْ لَبس الموتُ ثوبَ الحِداد الذى حاكهُ .. ورماهُ ؟
خصومة قلبى مع اللهِ
أين وريثُ أبي ؟
ذهبَ الملكُ ،
لكن لاسمِ أبى حقٌّ أنْ يتناقله أبنُه عنهُ
فكيفَ يموتُ أبي مرتين ؟
أيتها الأنجم المتلونةُ الوجهِ :

قولى له :

قدْ سلبْت حَياتين ..

أبْقِ حيـاه ..

وُرِدَّ حيـاهْ ..

خصومةُ قلبىَ معَ اللهِ .

هذا الكمالُ الذى خلق الله هيأتَهُ ،

فكَسَا العظَم باللحمِ ،

ها هوُ : جسماً — يعود لهُ — دونَ رأسٍ ،

فهلْ تتقبلُ بوابُ الغيبِ ما شَابَه العيبُ ،

أمْ أنَّ وجْهَ العدالةِ :

أنْ يرجعَ الشلْوُ للأصلِ ،

أنْ يرجَعَ البَعْدُ للقَبْلِ ،

أنْ ينهضَ الجسدُ المتمزِّقُ مكتملَ الظلِّ

حتَّى يعودَ إلى اللهِ .. متحداً فى بهاهُ ؟

(٣)

يجىُء أخـى

هلْ عباءتُهُ الريحُ ؟

هلْ سيفُهُ البرق ؟

هلْ يتمنطقُ فوق جوادِ السحاب ؟

يجىُء أخـى !

غافـلًا عن كتابِ المواريـثِ

عَنْ دمعِ الملكـىِّ ،

عَن الصولجان الذى صـارَ مقبَضُه العاج :

رأسَ غرابٍ !

يجىُء أخـى .

(كَانَ يعرفُهُ القلـبُ !)

أقـذُفُ تفاحةً

يتصدى لَها وهُوَ يطحنُهاَ بالركـابِ !

(هى الخطأ البشرُى الذى حرمَ النفسَ فردوسهَـا

الأوَلَ المستطـابَ)

أتَـنَّى ، فأقذفُ تفاحـةً ..

تستقرُّ على رأسِ حربتـهِ !

(أيُّها الوطنُ المستديـرُ .. الذى تثقبُ الحربُ عَذرته

بالحرابِ)

.. وتفاحُة تتلقفها يـدُه !

(هَى جوهَـرةُ المُلْكِ ،

جوهَـرةُ العـدْلِ ،

جوهَرةُ الحبِّ ..
فالحبُّ آبْ !)

... ...

قلـوبُ ثلاثيـةٌ شارةُ الزمنِ القـادِمِ المستجـابِ
قفـُوا ياشبـابِ !

لِمَن جاءَ من رحمِ الغيـب ،
خاضَ بساقيه فى بركـةِ الدمِ ،
لم يتناثـر عليـه الرشـاشُ ،
ولم تبدُ شائبـةٌ فى الثيـابِ !

قفـوا للهـلال الذى يستديـرُ ..
ليصبـحَ هالات نورٍ على كل وجهٍ وبابْ !
قفـُوا ياشبـابْ !
كليـبٌ يعوُد ..
كعنقاءَ قد أحرقتْ ريشهـَا
لتظلَّ الحقيقـةُ أبهىَ ..
وترْجع حلتَّها — فى سنَا الشمسِ .. أزهَى ..
وتفـردَ أجنحـةَ الغدِ ..
فوقَ مدائن تنهضُ من ذكرياتِ الخـرابِ !!

« أشـارات تاريخيـة »

البسـوس :

هى المرأة التى أثارت الفتنة بين قيس ، وأشعلت الحرب أربعين سنة ، وأثارت بنى بكر على بنى تغلب ، وحملت اسمها الملحمة . وهى كما تقول الرواية (شاعرة عجوز من عجائب الزمان ، ذات مكر واحتيال وخداع). وكان لها أربعة أسماء (سعاد .. تاج بخت .. هند . البسوس) وهى أخت الملك حسان اليمانى الذى قتله الأمير كليب من أجل أبنة عمه وخطيبته الجليلة .

كليب بن ربيعة :

اسمه وائل وكليب لقبه ، نشأ فى حجر أبيه ، ودرب على الحرب ، ثم تولى قيادة الجيش لبكر وتغلب زمنا .. « فكان ليث الصدام وزينة الليالىّ كما تقول الرواية .

جليلة بنت مرة :

شاعره .. أبنة عم كليب وزوجته التى انجبت له سبعة بنات ولد بعد موته هو (الهجرس) البطل المنتقم لأبيه .

وبعد مقتل زوجها كليب على يد أخيها جساس خرجت من تغلب وتنقلت مع بنى شيبان قومها مدة حروبهم حتى ماتت .

سامة :

كبرى بنات كليب .. تقول الرواية انها رفضت الديه فى أبيها كانت تقول :

« أنا لا أصالـح حتى يقوم والـدى
ونـراه راكـب يريد لقاكـم »

وقد اختصمت مع امها لانها أخت قاتل كليب .. حتى رحلت الجليلة مع قومها .

ساس بن مرة :

ابن عم لكليب وقاتله بعد ان نجحت البسوس (التى اقامت فى
يافته) فى أن تثير الفتن : بأن أمرت عبيدها أن يطلقوا ناقتها الجرباء
ى فى البستان المعروف بحى كليب . وتدمر الاشجار والاسوار ..
نى أمر كليب بذبح الناقة . ويقال أن جساسا هو آخر قتيل فى
رب البسوس التى استمرت منذ مقتل كليب وحتى مصرع جساس
ين عاما .

لهل بن ربيعـة :

هو سالم الملقب بالزير أو أبـو ليلى المهلهل الكبير .. أخو
يب وبطل السيرة والملحمة .. يصفه الرواه : (بالاسد الكرار والبطل
الغوار صاحب الاشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة) .

عندما أعلنته اليمامة وصية أبيها قال : انى لا اصالح الى الابد ما
دامت روحى فى هذا الجسـد .

« تذييـل »

« حاولت أن أقدم فى هذه المجموعة حرب البسوس التى استمرت أربعين سنة عن طريق رؤيا معاصـرة .

وقد حاولت أن أجعل من كليب رمزا للمجد العربى القتيل أو للارض العربية السليبة التى تريد أن تعود الى الحياة مرة أخرى ولا ترى سبيلاً لعودتها أو بالاحرى لاعادتها الا بالدم .. وبالدم وحـده ..

وهذه المجموعة عبارة عن قصائد مختلفة ، استحضرت شخصيات الحرب وجعلت كلا منها يدلى شهادتها التاريخية حول رؤيتها الخاصة .. ومن الطبيعى أن يكون لكل من هذه الشخصيات شهادتها المختلفة عن شهادة الاخرى ..

لقد استحضرت الملك كليب نفسه فى ساعاته الاخيرة ، وأدلت اليمامة التى كانت ترفض الصلح بشهادتها وكذلك فعل المهلهل الذى قاد الحرب انتقاما له .. وقدمت شهادة جساس مع تبريراته لجريمته ثم

شهادة جليلة بنت مرة الممزقة بين البطلين .. « زوجها وأخيها » ثم أتيت بشهادات لبعض الشخصيات التى تلعب دورا ، معلقا على الاحـداث ..»

أمل دنقل

عن مجلة آفاق عربية ١٩٨١

والديوان بصورته الأخيرة هذه .. يحتوى على شهادتين أو قصيدتين فقط هما : « الوصايا العشر ، وأقوال اليمامة ومراثيها » وقد كتبت قصائده ما بين (١٩٧٦ — ١٩٧٧) .

أما الشهادات (القصائد) الأخرى التى تحدث عنها أمل فقد ظلت تتبدل وتتغير يوما بعد آخر ، رافضة الوصول إلى حل يقنع الشاعر باكتمالها النهائى ، ذلك على الرغم من اكتمال اجزاء كثيرة منها فى ذاكرة الشاعر (الذى لا يسجل قصيدته على الورق إلا بعد أن يقتنع باكتمالها الأخير)

ومات أمل قبل إن تكتمل شهاداته (قصائده) فى ذهن المبدع ، وقبل أن يقنع ذهنه المبدع بصيغه ابداعية أخيرة ، وقبل أن ينتقم الزير لمقتل أخيه كليب ، وقبل أن تضع الحروب اوزارها ، لتظل الرؤيا باحثة عن حل يكتمل فى الابداع ، أو يتحقق فى الواقع .

* * *

أوراق الغرفة [٨]

عم صباحاً أيها الصقر المُجَنَّحْ
عِمْ صباحا .
سنةٌ تمضى ، وأخرى سوف تأتى .
فمتى يقبل موتى ..
قبل أن أصبحَ ــ مثل الصقرِ ــ
صقراً مستباحا !؟

بكائية لصقر قريش

الورقة الأخيرة
الجنوبي

صورة

هل أنا كنت طفلاً ..
أم ان الذى كان طفلاً سواى ؟
هذه الصورُ العائليةُ ..
كان أبي جالساً ، وأنا واقفٌ .. تتدلى يداى !

رفسةٌ من فَرَسْ
تركَت فى جبينى شجاً ، وعلَّمتِ القلب أن يحترسَ .
أتذكرْ ...
سال دمى
أتذكرُ ..
مات أبي نازفاً .

أتذكرُ ..
هذا الطريقَ إلى قبره ..
أتذكرُ ..
أختى الصغيرةَ ذات الربيعين .
لا أتذكر حتى الطريق إلى قبرها
المنطمـــسْ

أوَ كان الصبيُّ الصغير أنا ؟
أم ترى كان غيرى ؟
أحدِّقُ ..

لكن تلك الملامح ذات العذوبةِ .
لا تنتمى الآن لى .
والعيون التى تترقرق بالطيبة
الآن لا تنتمى لى .
صرتُ عنى غريبا .
ولم يتبقَ من السنوات الغريبةِ
إلا صدى اسمى ..

وأسماءُ من أتذكرهم — فجأة —
بين أعمدة النعيّ ،
أولئك الغامضون : رفاق صباى .
يقبلون من الصمت وجهاً فوجها ..
فيجتمع الشملُ كلَّ صباحٍ ،
لكى نأتنسْ .

وجـــه

كان يسكن قلبى
وأسكن غرفتهُ
نتقاسم نصفَ السريرِ ،
ونصفَ الرغيفِ ،
ونصفَ اللفافةِ ،
والكتبَ المستعارةْ .

هجرَتْه حبيبته فى الصباح فمزَّق شريانه فى المساء ،
ولكنه بعد يومين مَزَّق صورتها ..
واندهشْ .

لم ينخدشْ .
واستراح من الحربِ ..
عاد ليسكن بيتا جديداً
ويكسب قوتا جديداً
يدخن علبة تبغ بكاملها
ويجادل أصحابه حول أبخرة الشاى ..
لكنه لا يطيل الزيارةْ .
عندما احتقنت لوزتاه ، استشار الطبيبَ ،
وفى غرفة العمليات ..
لم يصطحب أحداً غير خُفٍّ ..
وأنبوبة لقياس الحرارةْ ،
فجأة مات !
لم يحتمل قلبه سريان المخدر ،
وانسحبت من على وجه سنواتُ العذابات ،

عاد كما كان طفلا ..

يشاركنى فى سريرى
وفى كسرة الخبز ، والتبغ ،
لكنه لا يشاركنى .. فى المرارة !

.

وجه

من أقاصى الجنوب أتى ، عاملاً
للبناء
كان يصعد « سقالةً » ويغنى لهذا الفضاء
كنت أجلس خارج مقهى قريب ،
وبالأعين الشاردة ..
كنت أقرأ نصفَ الصحيفة ،
والنصفَ أخفى به وسخ المائدة .
لم أجد غير عينين لاتبصران ..
وخيطَ الدماء .
وانحنيتُ عليه .. أجس يَدَهْ
قال آخر : لا فائدةْ

صار نصفُ الصحيفةِ كلَّ الغطاءْ
وأنا .. فى العراءْ

وجه

ليت « أسماءَ » تعرفُ أن أباها صَعَدْ
لم يمتْ
هل يموت الذى كان يحيا
كأن الحياة أبدْ !
وكأن الشراب نفدْ !
وكأن البناتِ الجميلاتِ يمشين فوق الزبدْ !
عاش منتصباً ، بينما
ينحنى القلبُ يبحث عما فقدْ .
ليت « أسماءَ » تعرف أن أباها الذى ..
حفظ الحبُ والأصدقاءُ تصاويرَه :.
وهو يضحكُ ،

وهو يفكرُ ،
وهو يفتش عما يقيم الأودْ .
ليت « أسماءَ » تعرف أن البْناتِ الجميلاتِ ..
خبَّأنه بين أوراقهن ،
وعلَّمنه أن يسيرَ ..
ولا يلتقى بأحدْ !

مــرآة

ــ هل تريد قليلاً من البحر ؟
ــ إن الجنوبى لا يطمئن إلى اثنين يا سيدى :
البحر ــ والمرأة الكاذبة .
ــ سوف آتيك بالرمل منه
... وتلاشى به الظلُّ شيئاً فشيئاً ،
فلم أستبنه
ــ هل تريدُ قليلا من الخمر ؟
ــ إن الجنوبى يا سيدى يتهيب شيئين :

قنينةَ الخمرِ ــ والآلةَ الحاسبةْ .
ــ سوف آتيكَ بالثلج منه .
وتلاشى به الظل شيئاً فشيئاً ...
فلم أستبنه .

بعدها لم أجدْ صاحِبىَّ
لم يعد واحدٌ منهما لى بشئْ
ــ هل تريد قليلا من الصبرِ ؟
ــ لا ..
فالجنوبى يا سيدى يشتهى أن يكون الذى لم يكنْ
يشتهى أن يلاقى اثنتين :
الحقيقةَ ــ والأوجهَ الغائبة .

ضد من

فى غُرفِ العمليات ،
كان نقابُ الأطباء أبيض ،
لونُ المعاطف أبيض ،
تاجُ الحكيمات أبيض ، أرديةُ الراهباتُ ،
الملاءاتُ ،
لونُ الأسرَّة ، أربطةُ الشاش والقطن ،
قرصُ المنومِ ، أُنبوبةُ المصل ،
كوبُ اللبن .
كلُّ هذا يشيعُ بقلبى الوهن .
كلُّ هذا البياض يذكرنى بالكفنْ !
فلماذا إذا متُّ ..

يأتى المعزُّون متشحين ..
بشارات لون الحداد ؟
هل لأن السواد ..
هو لونُ النجاة من الموتِ ،
لونُ التميمةِ ضد .. الزمنْ ،

ضد منْ .. ؟
ومتى القلب ــ فى الخفقان ــ اطمأن ؟!

بين لونين : أستقبل الأصدقاء ..
الذين يرون سريرىَ قبرا
وحياتىَ ... دهرا

وأرى فى العيون العميقةِ
لونَ الحقيقةِ
لونَ تراب الوطنْ !

زهـور

وسلالٍ من الوردِ ،
ألمحها بين إغفاءةٍ وإفاقةْ
وعلى كل باقةْ
اسمُ حاملها فى بطاقة
... ...
تتحدثُ لى الزهراتُ الجميلةُ
أن أعينها اتسعت — دهشةً —
لحظةَ القطفِ ،
لحظةَ القصفِ ،

لحظةَ إعدامها فى الخميلةْ !
تتحدثُ لى ..
أنها سقطت من على عرشها فى البساتين

ثم أفاقت على عَرضِها فى زجاج الدكاكين ، أو بين أيدى المنادين ،
حتى اشترتها اليدُ المتفضلةُ العابرةْ
تتحدث لى ..
كيف جاءت الىّ ..
(وأحزانُها الملكيةُ ترفع أعناقها الخضرَ)
كى تتمنى لىَ العمرَ !
وهى تجود بأنفاسها الآخرةْ !!

كلُّ باقةْ ..
بين إغماءةٍ وإفاقةْ
تتنفس مثلىَ — بالكادِ — ثانيةً .. ثانيةْ
وعلى صدرها حَمَلت — راضيةْ ..
اسمَ قاتلِها فى بطاقةْ !

السرير

أوهمونى بأن السريرَ سريرى !
أن قاربَ « رعْ »
سوف ــ يحملنى عبر نهر الأفاعى
لأولدَ فى الصبح ثانيةً .. إن سَطَعْ
(فوق الورقِ المصقولْ
وضعوا رقمى دون اسمْ
وضعوا تذكرةَ الدمْ
واسمَ المرضِ المجهولْ)

أوهمونى فصدَّقتُ ..
(هذا السريرْ
ظنَّنى ــ مثله ــ فاقدَ الروح

فالتصقتْ بىَ أضلاعُه
والجمادُ يضمُّ الجمادَ ليحمِيَهُ من مواجهةِ الناسِ !)
صرتُ أنا والسريرْ ..
جسداً واحداً .. فى انتظارِ المصيرْ !

(طولَ الليلاتِ الألفْ
والأذرعةُ المعدنْ
تلتفُّ وتتمكنْ
فى جسدى حتى النزفْ

صرتُ أقدرُ أن أتقلّبَ فى نومتى واضطجاعى
أنْ أحّركَ نحو الطعام ذراعى ..
واستبان السرير خِداعى ..
فارتعشْ !
وتداخل ــ كالقنفذِ الحجرىِّ ــ على صمته وانكمشْ
قلتُ : يا سيدى .. لمَ جافيتنى ؟
قال : ها أنت كلمتنى ..
وأنا لا أجيب الذين يمرون فوق

سوى بالانين
فالأسِرَّةُ لا تستريح إلى جسدٍ دون آخرَ
الأسِرَّةُ دائمةٌ
والذين ينامون سرعان ما ينزلونْ
نحو نهر الحياة لكى يسبحوا
أو يغوصوا بنهر السكونْ !

فى الميادين يجلس ،
يطلق — كالطفل — نبلته بالحصى ..
فيصيب بها من يصيب من السابلة !

يتوجه للبحر ،
فى ساعة المدِّ :
يطرح فى الماء سنارة الصيد ،
ثم يعود ..
ليكتب أسماء من علقوا
فى أحابيله القاتلة !
لا يحبُّ البساتينَ ..

لكنه يتسللِ من سورها المتآكلِ ،
يصنع تاجاً :
جواهرُهُ .. الثمرُ المتعفنُ ،
إكليلهُ .. الورق المتغضنُ ،
يلبسه فوق طوق الزهورِ
الخريفيةِ
الذابلةْ !

يتحول : أفعى .. ونايا
فيرى فى المرايا ::
جسدين وقلبين متحديْن ،
(تَغيمُ الزوايا
وتحكي العيونُ حكايا)
فينسلُ بينهما ..
مثل خيطٍ من العرق المتفصِّدِ ،
يلعقُ دفءَ مسامهما ،
يغرسُ النابَ فى موضع القلبِ :
تسقط رأسُ الفتى فى الغطاء ،

وتبقى الفتاة ..
محدِّقةً
ذاهلةْ .. !
أمس : فاجأْته واقفا بجوار سريرى
ممسكاً — بيدٍ — كوبَ ماءْ
ويدٍ — بحبوب الدواءْ
فتناولتها .. !
كان مبتسماً
وأنا كنت مستسلماً
لمصيرى !!

ديسمبر

(١)

تتساقط أوراقُ « ديسمبر » الباهتة !

... ...

هو عُمْرٌ من الريح

(هذا الذى بين أن تترك الوَرْقَةُ الغصنَ

حتى تلامسَ أطرافُها حافةَ الأرض)

عمرٌ من الاضطرابْ

فافترشن جوارى — أيتها الباحثات عن الذات —

وجهَ الترابْ

وتعالينَ .. نروِ الأقاصيصَ ..

عن راحة الروح

عن لذة الاغترابْ

وعبودية الأغصن الثابتة .

(٢)

أخذوا أصدقائىَ للسجنِ ،

لكنهم فى ليالى الحنينْ

يقبلون ، لنشرب كأسينِ ..

فى البار ذى الردهة الخاليةْ

فاذا دقت الساعةُ الثانيةْ

صفق الخدمُ المتعبون

فاختفى أصدقائى وهم يضحكون

— نلتقى ثانية

— نلتقى الليلة التالية ..

... ...

بعدها خرجوا : انقطع الخيط ما بيننا

واستطال السكون

كان ما بينهم : ذكرياتٌ .. وخبز مريرٌ

ومسحة حزن

قلت : ها أصبحوا ورقا ثابتا فى شجيرة سجن
فمتى يفلتونَ
منْ الزمن المتوقف فى ردهات الجنونْ ؟

(٣)

هاهو الرخُّ ذو المخلبين يحومُ ..
ليحمل جثة ديسمبرَ الساخنةْ
ها هو الرخ يهبطُ ..
والسحْب تلقى على الشمس طرحتها الداكنة

قالت الراهباتُ :
(سلامٌ علىُ الأرض !)
يا أيها الرخُّ : كم جثةً حملتها مخالبك الأبديةُ خلف الجبلْ ؟؟
ما الذى نحن نعطيكَ ــ يا أيها الرخ ــ منذ الأزلْ ؟
ما الذى نحن نعطيكَ ؟
لا شيء إلا توابيت ، لا شيء ،
إلا المبادلة الخائبة .
جثثٌ تتراكم فى الضفة الساكنة

بينما نحن ــ نمتلك النورَ
عشبَ البحيراتِ ــ صوت الكناريا ــ
مجالسةَ الورد ــ أنشودةَ المهد ــ رقصَ
البنات الصغيرات فى العرس ــ تمتمةَ
القطِّ فى الصلوات ــ خريرَ الينابيع ــ
هذا التساؤلَ عن لون عينين عاشقتينِ ،
كنافذتين على البحر ــ طعمَ القبلْ ؛
بينما أنت من ظلمة العدم الآسنةْ
تتلقى النفاياتِ تلو النفاياتِ دون كللْ
عاجزا عنِ ملامسةِ الفرح العذبِ ،
عن أن تبلَّ جناحك فى مطر القلبِ
أن تتطهر بالرقة الفاتنةْ !!

(٤)

قلت للورق المتساقطِ من ذكريات الشجرْ
إننى أترك الآن ــ مثلك ــ بيتى القديمْ
حيث تلقى بىَ الريحُ أرسو ــ

وليس معى غيرُ :

حزنى المقيمْ
وجوازُ السفرْ !

الطيور

(١)

الطيورُ مشرَّدةٌ فى السمواتِ ،
ليس لها أن تحط على الأرض ،
ليس لها غير أن تتقاذفها فلواتُ الرياح !
ربما تتنزلُ ...
كى تستريحَ دقائق ..
فوق النخيلِ — النجيلِ — التماثيل —
أعمدةِ الكهرباء —
حوافِ الشبابيك والمشربياتِ
والأسطح الخرسانية .
(اهدأ ، ليلتقطَ القلبُ تنهيدةً ،

والفمُ العذبُ تغريدةَ ،
والقطُ الرزق ..)
سرعان ما تتفزعُ ..
من نقلةِ الرَّحْل ،
من نبلة الطفل ،
من ميلةِ الظل عبر الحوائط ،
من حصواتِ الصياح !

الطيورُ معلقةٌ فى السمواتِ
ما بين أنسجةِ العنكبوت الفضائىِّ : للريح
مرشوقةٌ فى امتداد السهام المضيئةِ
للشمسِ ،
(رفرِفْ ..
فليس أمامك —
والبشر المستبيحون والمستباحون : صاحون —
ليس أمامك غيرُ الفرارْ ..
الفرارُ الذى يتجدد .. كلَّ صباح !)

(٢)

والطيورُ التى أقعدتها مخالطةُ الناسِ ،
مرَّتْ طمأنينةُ العيش فوق مَناسِرِها ..
فانتختْ ،
وبأعينها .. فارتختْ ،
وارتضتْ أن تقاقىءُ حول الطعامِ المتاحْ
ما الذى يتبقى لها .. غيرُ سكّينةِ الذبح ،
غيرُ انتظارِ النهايةِ .
إن اليدَ الآدميةَ .. واهبةَ القمح
تعرف كيف تسن السلاح !

(٣)

الطيورُ .. الطيورْ
تحتوى الأرضُ جثمانها .. فى السقوطِ الأخيرْ !
والطيور التى لا تطيرْ ..
طوتِ الريشَ ، واستسلمتْ
هل تُرى علمتْ
أن عمر الجناح قصيرٌ .. قصيرْ ؟!

الجناحُ حياة
والجناحُ ردًى .
والجناحُ نجاة . .
والجناحُ .. سدى !

الخيـول

(١)

الفتوحات ـــ فى الأرض ـــ مكتوبة بدماء الخيولْ .
وحدود الممالكْ
رسمتها السنابكْ .
والركابان : ميزانُ عدلٍ يميل مع السيف ..
حيث يميلْ !

ه ه ه

أركضى أو قفى الآن .. أيتها الخيلُ :
لستِ المغيراتِ صُبحا
ولا العاديات ـــ كما قيل ـــ ضَبْحا

ولا خضرة فى طريقك تمحى
ولا طفل أضحى
إذا ما مررت به .. يتنحى ؛
وها هى كوكبةُ الحرسِ الملكىِّ ..
تجاهد أن تبعثَ الروحَ فى جسدِ الذكرياتِ
بدقِ الطبولْ .

اركضى كالسلاحفْ
نحو زوايا المتاحف ..
صيرى تماثيلَ من حجرٍ فى الميادينَ
صيرى أراجيح من خشبٍ للصغار — الرياحينَ ،

صيرى فوارس حلوى بموسمك النبوىِّ ،
وللصبيةِ الفقراء : حصاناً من الطينِ
صيرى رسوما .. ووهماً
تجف الخطوط به
مثلما جفَّ — فى رئتيك — الصهيل !

(٢)

كانت الخيلُ — فى البدء — كالناس
برِّية تتراكض عبر السهول

كانت الخيلُ كالناس فى البدءِ ...
تمتلك الشمسَ والعشبَ
والملكوتَ الظليلْ
ظهرُها .. لم يُوَطَّأْ لكى يركبَ القادةُ الفاتحون ،
ولم يلن الجسدُ الحر تحت سياط المروِّضِ
والفم لم يمتثل للجام ،
ولم يكن الزادُ .. بالكادِ ،
لم تكن الساق مشكولةً ،
والحوافرُ لم يَكُ يثقلها السنبكُ المعدنىُّ الصقيلْ .

كانت الخيل برِّيَةً
تتنفس حُرِّيَةً
مثلما يتنفسها الناسُ

ارکضی .. أو قفی
زمنٌ يتقاطعُ
واخترتِ أن تذهبى فى الطريق الذى يتراجعُ
تنحدر الشمس
ينحدر الأمسُ
تنحدر الطرق الجبليةُ للهُوَّةِ اللانهائيةِ :
الشهْبِ المتفحمةُ
الذكريات التى أشهرتْ شوكها كالقنافذِ
والذكريات التى سلخ الخوفُ بشرتها .
كل نهر يحاول أن يلمس القاع
كل الينابيع إن لمست جدولاً من جداولها
تختفى
وهى .. لا تكتفى !
فاركضى أو قفى
كل دربٍ يقودك من مستحيلٍ إلى مستحيلْ !

(٣)

الخيولُ بساطٌ على الريح ..
سار ـــ على متنه ـــ الناسُ للناسِ عبر المكانْ
والخيولُ جدارٌ به انقسمَ
الناسُ صنفين :
صاروا مشاةً .. وركبانْ
والخيولُ التى انحدرت نحو هوَّةِ نِسيانها
حملت معها جيلَ فرسانها
تركتْ خلفها : دمعةَ الندم الأبديِّ
وأشباحَ خيل
وأشباهَ فرسان
ومشاةً يسيرون ـــ حتى النهايةِ ـــ تحت ظلالِ الهوانْ .

أركضى للقرارْ
واركضِ أو قفى فى طريق الفرارْ .
تتساوى محصلةُ الركضِ والرفضِ فى الأرضِ ،

ماذا تبقى لك الآن ؛
ماذا ؟
سوى عرقٍ يتصببُ من تعبٍ
يستحيل دنانيرَ من ذهبٍ
فى جيوب هُوَاةِ سلالاتك العربيةِ
فى حلبات المراهنةِ الدائريةِ
فى نزهة المركباتِ السياحيةِ المشتهاةِ
وفى المتعة المشتراةِ
وفى المرأة الأجنبيةِ تعلوكِ تحت
ظلالِ أبى الهول ..
(هذا الذى كسرت أنفهُ
لعنةُ الانتظار الطويلْ)

استدارت ـــ إلى الغربِ ـــ مزولةُ الوقتْ
صارت الخيلُ ناساً تسيرُ إلى هُوَّةِ الصمتْ
بينما الناسُ خيلٌ تسير إلى هوة الموتْ !

مقابلة خاصة مع ابن نوح

جاء طوفانُ نوحْ !
... ...
المدينةُ تغرقُ شيئاً .. فشيئاً
تفرُّ العصافيرُ ،
والماء يعلو .
على درجاتِ البيوتِ ـــ الحوانيتِ ـــ مبنى البريدِ ـــ البن
التماثيلِ (أجدادِنا الخالدين) ـــ المعابدِ ـــ أجولةِ القمحِ
مستشفياتِ الولادةِ ـــ بوابةِ السجنِ ـــ دارِ الولايةِ ـــ
أروقةِ الثكناتِ الحصينةْ .
العصافيرُ تجلو ..
رويداً ..
رويداً ..

ويطفو الإوزُ على الماء ،
يطفو الأثاثُ ..
ولعبةُ طفلٍ ..
وشهقةُ أم حزينةْ
الصبايا يلوِّحن فوق السطوحْ !
ناء طوفانُ نوحْ .
ا همُ « الحكماءُ » يفرُّونَ نحو السفينةْ
المغنونَ ــ سائسُ خيلِ الأميرِ ــ المرابونَ ــ
قاضى القضاةِ
.. ومملوكُهُ !) ــ
حاملُ السيفُ ــ راقصةُ المعبدِ

(ابتهجتْ عندما انتشَلتْ شعرَها المستعارْ)
ــ جباةُ الضرائبِ ــ مستوردُو شحناتِ السلاحِ ــ
عشيقُ الأميرةِ فى سمته الأنثوى الصبوحْ !
ناء طوفان نوحْ .
ا هم الجُبناءُ يفرُّون نحو السفينةْ .
بنما كنتُ ..
كان شبابُ المدينةْ

يلجمون جوادَ المياهِ الجموحْ
ينقلون المياهَ على الكتفين .
ويستبقون الزمنْ
يبتنونَ سدودَ الحجارةِ
عَلَّهُمْ ينقذونَ مهادَ الصبا والحضارةِ
عَلَّهُمْ ينقذونَ .. الوطنْ !

.. صاح بى سيدُ الفلكِ ــ قبل حلولِ
السكينةْ :
« انجُ من بلدٍ .. لم تعدْ فيه روحْ ! »

قلتُ :
طوبى لمن طعموا خبزه ..
فى الزمان الحسنْ
وأداروا له الظهرَ
يوم المحَنْ !

ولنا المجد ــ نحن الذين وقفنا
(وقد طمسَ اللهُ اسماءنا !)

نتحدى الدمارَ ..
ونأوى إلى جبلٍ لا يموتْ
(يسمونه الشعبَ !)

نأبى الفرارَ ..
ونأبى النزوحْ !
... ...
... ...
... ...
كان قلبى الذى نسجته الجروحْ
كان قلبى الذى لعنته الشروحْ
يرقد ـــ الآن ـــ فوق بقايا المدينةْ
وردةً من عطنْ
هادئاً ..
بعد أن قال « لا » للسفينةْ
.. وأحبَّ الوطن !

خطاب غير تاريخى على قبر صلاح الدين

ها أنتَ تسترخى أخيرا ..
فوداعاً ..
يا صلاحَ الدينْ .
يا أيها الطبلُ البدائىُّ الذى تراقصَ الموتى
على إيقاعِهِ المجنونِ .
يا قارب الفلّين
للعرب الغرقى الذين شتتهُمْ سفنُ القراصنة
وأدركتهم لعنة الفراعنة .
وسنةً .. بعد سنة ..
صارت لهم « حطينْ » ..
تميمةَ الطفلِ ، واكسيرَ الغدِ العنينْ

(جبل التوباد حيَّاك الحيا)
(وسقى الله ثرانا الأجنبى !)

مَرَّت خيولُ الترْكْ
مَرَّت خيولُ الشِّركْ
مَرَّت خيولُ الملك — النِسر ،
مَرَّتْ خيولُ التترِ الباقينْ
ونحن — جيلا بعد جيل — فى ميادين المراهنة
نموت تحت الأحصنةْ !
وأنت فى المذياع ، فى جرائد التهوينْ
تستوقف الفارين
تخطب فيهم صائحاً : « حطينْ » ..
وترتدى العقالَ تارةً ،
وترتدى ملابس الفدائيينْ
وتشربُ الشاىَ مع الجنودِ
فى المعسكرات الخشنةْ

وترفع الرايةَ ،

حتى تسترد المدنَ المرتَهنَة
وتطلقُ النارَ على جوادكَ المسكينْ
حتى سقطت — أيها الزعيم
واغتالتك أيدى الكهنة !

(وطنى لو شُغِلْتُ بالخلدِ عنه ..)
(نازعتنى — لمجلس الأمن — نفسى !)

نَمْ يا صلاح الدين
نَمْ .. تتدلى فوق قبرك الورودُ ..
كالمظليين !
ونحن ساهرون فى نافذةِ الحنينْ
نُقشِّرُ التفاحَ بالسكينْ
ونسأل الله « القروض الحسنة » !
فاتحةً :
آمينْ .

بكائية لصقر قريش

عِمْ صباحاً .. أيها الصقرُ المُجنَّحْ
عم صباحا ..
هل ترقبتَ كثيرا أن ترى الشمسَ
التى تغسلُ فى ماءِ البحيراتِ الجراحا
ثم تلهو بكُراتِ الثلج ،
تستلقى على التربةِ ،
تستلقى .. وتَلْفَحْ !
هل ترقبتَ كثيرا أن ترى الشمسَ .. لتفرحْ
وتسدَّ الأُفقَ للشرق جناحا ؟
أنت ذا باقِ على الراياتِ .. مصلوبا .. مباحا

تصرُّ الريحَ ؛ وأضلاعُك كالروض المُصوَّحْ
تتشهّى لذغةَ الشمسِ التى تنسج للدفءِ وشاحا !

أنت ذا باقِ على الرايات مصلوبا .. مباحا
— « اسقني .. »
لا يرفع الجندُ سوى كوبِ دمٍ .. مازال يسفحْ !
— « اسقني .. »
— هاك الشرابَ النبويَّ ..
اشربْهُ عذبا وقراحا
مثلما يشربه الباكونَ ..
والماشونَ فى أنشودةِ الفقرِ المسلَّحْ !
— « اسقنى .. »
لا يرفع الجندُ سوى كوبِ دمٍ مازال يسفحْ !
بينما « السادةُ » فى بوابةِ الصمت المملج
يتلقون الرياحا
ليلفوها بأطرافِ العباءاتِ ..
يدقوا فى ذراعيها المساميرَ ..

وتبقى أنتَ
(ما بين خيوطِ الوشى)
زراً ذهبياً
يتأرجحُ !
وقف « الأغرابُ » فى بوابةِ الصمتِ المملحْ
يشهرون الصَلَفَ الأسودَ فى الوجهِ سلاحا
ينقلون الأرضَ : أكياساً من الرملِ .
وأكداساً من الظلّ
على ظهرِ الجوادِ العربىِّ المُترَنّحْ !
ينقلون الأرضَ ..
نحو الناقلاتِ الراسياتِ — الآنَ — فى البحرِ
التى تنوى الرواحا
دون أن تطلقَ فى رأس الحصانْ
طلقةَ الرحمةِ ،
أو تمنحه بعضَ امتنانْ !

عِمْ صباحاً أيها الصقرُ المُجَنَّحْ
عِم صباحا

سنةٌ تمضى ، وأخرى سوف تأتى .
فمتى يقبل موتى ..
قبل أن أصبحَ — مثل الصقرِ —
صقراً مستباحاً !؟

قالت امرأة فى المدينة

(١)

سيف جدى على حائط البيت .. يبكى :
وصورته فى ثيابِ الركوبْ !

(٢)

قالت امرأةٌ فى المدينة
من ذلك الأُمَوِىُّ الذى يتباكى على دم عثمان !
من قال إن الخيانة تنجب غير الخيانة ؟
كونوا له يا رجال ..
أم تحبون أن يَتَفَيَّأ أطفالكم تحت
سيف ابن هندْ ؟

... ...
ربما ردَّت الريحُ ــ سيدتى ــ نصفَ ردْ
ضَاعَ .. وابتلعته الرمالْ !
نحن جيلُ الحروب ..
نحن جيلُ السباحةِ فى الدمِ ..
ألقت بنا السفنُ الورقيةُ فوق ثلوج العدم
(قبضاتُ القلوب ــ
وحدها ــ حطمتها .. ومازال فيها الأسى والندوب ..)

نحن جيلُ الألم
لم نَرَ القدسَ إلا تصاويرَ
لم نتكلَّمْ سوى لغة العرب الفاتحين
لم نتسلمْ سوى رايةِ العربِ النازحينَ ،
ولم نتعلم سوى أنْ هذا الرصاصَ
مفاتيحُ بابِ فلسطين

فاشهد لنا ياقلم
أننا لم ننمْ
أننا لم نقف بين « لا » و« نعم »

ما أقل الحروفَ التى يتألّف منها اسمُ مَا ضاعَ من وطنٍ،
واسمُ من مَات من أجلِهِ
منْ أخٍ أو حبيبٍ !
هل عرفنا كتابةَ أسمائنا بالمدادِ
على كتبِ الدرسِ ؟
ها قد عرفنا كتابة أسمائنا
بالأظافرِ فى غرفِ الحبسِ
أو بالدماء على جيفة الرملِ والشمسِ ،
أو بالسوادِ على صفحات الجرائدِ قبل الأخيرة .
أو بحداد الأرامل فى ردهاتِ (المعاشاتِ) ،
أو بالغبارِ الذى يتوالى على الصورِ
المنزليةِ للشهداءِ
الغبارُ الذى يتوالى على أوجه الشهداء ..
إلى أن .. تغيبَ !!
قالت امرأةٌ فى المدينة :
من يجرؤ الآنَ أن يخفضَ العلمَ القرمزىَّ
الذى رفعته الجماجمُ ،
أو يبيعَ رغيفَ الدمِ الساخنِ المتخثرِ فوق الرمالْ .

أو يمدَّ يداً للعظامِ التى ما استكانتْ
(وكانتْ رجالْ ..)
كى تكونَ قوائمَ مائدةً للتواقيع
أو قلماً
أو عصا فى المراسمْ ؟

... ...

لم يجبها أحدْ ..
غيرُ سيفٍ قديمٍ ..
وصورةِ جدْ !

إلى محمود حسن إسماعيل في ذكراه

واحدٌ من جنودِكَ يا سيدى .
قطعوا يوم مؤتةَ منى اليدينْ
فاحتضنتُ لواءك بالمرفقينْ
واحتسبتُ لوجهكَ مُستشهدَى !

واحدٌ من جنودك — يا أيها الشعرُ —
هل يصلُ الصوتُ ؟
(والريحُ مشدودةٌ بالمساميرِ !)
هل يصلُ الصوتُ ؟
(والعصافيرُ مرصودةٌ بالنواطيرِ !)

هل يصل الصوتُ ؟
أم يصلُ الموتُ ؟
قلْ لى ، فإنى أناديكَ
من زمن الشعراءِ — الأناشيدِ
للشعراءِ — السجاجيدِ
من زمنِ الشعراءِ — الصعاليكِ
للشعراءِ — المماليكِ .
أرسم دائرة بالطباشيرِ
لا أتجاوزها !
كيف لى ؟ وأنا أتمزق ما بين رُخَّيْنِ !
والقدمانِ معلقتان بفخينِ !
أعيانىَ الكرُّ والفرُّ
واجتازنى الخيرُ والشرُّ

أيسِرْ . تيسَّرتُ ، حتى تعسَّرتُ ، حتى تعثَّرتْ .
أيمِنْ . تيمَّنتُ ، حتى تيمَّمتُ ، حتى تيتمتْ .
أين المفرُّ ؟ وأين المقرْ ؟
للخفافيشِ أسماؤها التى تتسمَّى بها !
فلمن تتسمى إذا انتسب النورُ !

والنورُ لا ينتمى الآن للشمسِ
فالشمسُ هالاتُها تتحلق فوق العقالاتِ .
هل طلع البدرُ من يثربٍ أم من الأحمدى ؟
وبانت سعادُ ..
تراها تبينُ من البردة النبويةِ
أم من قلنسوة الكاهنين الخَزَرْ ؟
واحدٌ من جنودك يا سيدى

ألف بيتٍ وبيتْ ..
واحتوتكَ الكويتْ !
فعرفت بموتك أين غدى !

واحدٌ من جنودك — يا أيها الشعرُ — !
كلُّ الأحبةِ يرتحلونَ
فترحل شيئا فشيئا من العين ألفةُ هذا الوطنْ
نتغربُ فى الأرضِ . نصبحُ أغربةً فى التآبينِ ننعى
زهورَ البساتينِ
لا نتوقف فى صحفِ اليوم إلّا أمام العناوينِ
[illegible]مرؤها دون أن يطرفَ الجفنُ .

سرعان ما نفتح الصفحاتِ قبيل الأخيرة ،
ندخلُ فيها نجالسُ أحرفَها ،
فتعود لنا ألفةُ الأصدقاءِ ، وذكرى الوجوهِ
تعود لنا الحيويةُ ، والدهشةُ العَرَضيّةُ
واللونُ ، والأمنُ ، والحزنُ .
هذا هو العالمُ المتبقى لنا : إنه الصمتُ
والذكرياتُ ، السوادُ هو الأهلُ والبيتُ .
إن البياضَ الوحيدَ الذى نرتجيه
البياضَ الوحيدَ الذى نتوحدُ فيهْ :
بياضُ الكفن !

واحدٌ من جنودِكَ يا سيدى
خبزه خُبْزُ ضيقْ
ماؤه بلُّ ريقْ
والمماتُ بعينيه كالمولِدِ
واحدٌ من جنودِكَ يا سيدى
يركع الآن ينشدُ جوهرةً تتخبأ فى الوحلِ
أو قمراً فى البحيراتِ ،
أو فرساً نافراً فى الغمامْ .

ها هو الآن ، لا نهرَ يغسل فيه الجروحْ
وينهلُ من مائه شربةً تمسك الروحْ
لا منزلٌ لا مقامْ
فعلى الراحلينَ السلامْ
والسلامُ على من أقامْ .

« تذييـــل »

يضم هذا الديوان القصائد الأخيرة التى كتبهاأمل دنقل (١٩٤٠ — ١٩٨٣) طوال فترة مرضه الذى صارعه أربع سنوات . من أوائل سبتمبر ١٩٧٩ إلى أواخر مايو ١٩٨٣ . ولم نجد لهذا الديوان عنوانا أكثر صدقا من « أوراق الغرفة (٨) » ؛ فالديوان ينطوى على أوراق أمل الأخيرة ، والغرفة رقم (٨) هى آخر الغرف التى قاوم فيها أمل مرضه ، قرابة عام ونصف ، فى الدور السابع من « المعهد القومى للأورام » ، من فبراير ١٩٨٢ إلى يوم رحيله الساعة الرابعة من صباح السبت ، الحادى والعشرين من مايو ١٩٨٣ .

و « الجنوبى » هى الورقة الأولى فى هذا الديوان ، ولكنها الورقة الأخيرة فى رحلة إبداع أمل دنقل ، فقد كتبت فى فبراير ١٩٨٣ ، وتنطوى على رؤيا النهاية التى أكتملت دائرتها ، بعد تأملات الغرفة (٨) عام ١٩٨٢ ، تلك التأملات التى صاغتها قصائد : « ضد من » ، و « زهور » (وكانت الكتابة النهائية لكلتيهما فى مايو ١٩٨٢) و « لعبة النهاية » (الكتابة النهائية فى يونيو ١٩٨٢) و « السرير » (نوفمبر ١٩٨٢)

وهناك قصائد أخرى ـــ فى هذا الديوان تنتمى إلى تاريخ مقارب ، منها « الطيور » و « الخيول » ، وقد كتبت كلتاهما عام ١٩٨١ ، ولكن أمل ظل يغيّر ويبدل فيهما ـــ كعادته فى الحرص على أقصى درجات الدقة اللغوية ، وأقصى درجات التجانس البنائى ـــ إلى أن أستقر على الصياغة الأخيرة للطيور فى أكتوبر من العام الماضى ، والصياغة الأخيرة للخيول فى أواخر ديسمبر من العام نفسه . وعلى العكس من هاتين القصيدتين ، مازالت قصيدته فى الذكرى الرابعة لمحمود حسن إسماعيل ـــ إبريل ١٩٨١ ـــ تنتظر اللمسة الأخيرة ، ولم نملك سوى أن نستخلصها من آخر مسوداتها .

أما بقية قصائد هذا الديوان فترجع إلى فترة زمنية تمتد من عام ١٩٧٥ . لاتمثل هذه القصائد كل ماكتبه أمل دنقل فى الرحلة السابقة على مرضه ، ولكنها أكثر ماوجدته السيدة زوجته ـــ عبلة الروينى ـــ من قصائد هذه المرحلة إتساقا مع الدلالات الأساسية التى ينطوى عليها هذا الديوان .

قصائد متفرقة

إلى صديقة دمشقية

اذا سباكِ قائدُ التتار
وصرتِ محظية ...
فشد شعرا منك فى سعار
وافتض عذرية ..
واغرورقت عيونك الزرق السماوية
بدمعة كالصيف ، ماسية
وغبت فى الأسوار ؛
فمن ترى يفتح عين الليل بابتسامة النهار ؟

° ° °

مازلتِ رغم الصمت والحصار
اذكر عينيك المضيئتين من خلف الخمار
وبسمة الثغر الطفولية ..
اذكر امسياتنا القصار
ورحلة السفح الصباحية
حين التقينا نضرب الأشجار
ونقذف الأحجار
فى مساء فسقيه !

° ° °

قلتِ ــ ونحن نسدل الأستار
فى شرفة البيت الأمامية :
لا تبتعد عنى
أنظرْ الى عينى
هل تستحق دمعةً من أدمع الحزن ؟

ولم أجبك ، فالمباخر الشآمية
والحب والتذكار
طغت على لحنى
لم تبق منى وهم ، أغنيه !
وقلتُ ، والصمت العميق تدقه الأمطار
على الشوارع الجليدية :
عدتُ اليك .. بعد طول التيه فى البحار
أدفن حزنى فى عبير الخصلات الكستنائية
أسير فى جناتكِ الخضر الربيعية
أبلُّ ريق الشوق من غدرانها ،
أغسل عن وجهى الغبار !!
نافحتُ عنك قائد التتار
رشقتُ فى جواده .. مدية
لكننى خشيت أن تَمسَّكِ الأخطار
حين استحالت فى الدجى الرؤية
لذا استطاع فى سحابة من الغبار
أن يخطف العذراء .. تاركا على يدى الازار

كآلوهم ، كالفريه !

... ...

(.. مابالنا نستذكر الماضى ، دعى الاظفار ..
لا تنبش الموتى ، تعرى حرمة الأسرار ..)

* * *

ياكُم تمنت زمرة الأشرار
لو مزقوا تنورة فى الخصر .. بُنَيّة
لو علموك العزف فى القيثار
لتطريبهم كل أُمة
حتى اذا انفضت أغانيك الدمشقية
تناهبوك ؛ القادة الأقزام .. والأنصار
ثم رموك للجنود الانكشارية
يقضون من شبابك الاوطار !

* * *

الآن .. مهما يقرع الاعصار
نوافذ البيت الزجاجية ،
لن ينطفى فى الموقد المكدود رقص النار
تستدفىء الأيدى على وهج العناق الحار
كى تولد الشمس التى نختار
فى وحشة الليل الشتائية !

أيلول ١٩٦٦

عشـــــاء

قصدتهم فى موعد العشاء

تطلعوا لى برهة ،

ولم يرد واحد منهم تحية المساء !

... وعادت الأيدى تراوح الملاعق الصغيرة

فى طبق الحساء

... ...

نظرت فى الوعاء :

هتفت : « ويحكم .. دمى

هذا دمى .. فانتبهوا »

.. لم يأبهوا !

وظلّت الأيدى تراوح الملاعق الصغيرة

وظلت الشفاه تلعق الدماء !

البطاقة السوداء

« إلى أنور المعداوى »

أراه من نوافذ المترو .. على محطات الوقوف
مستندا بكتفه اليسرى إلى الجدار
يدير فى اصبعه سلسلة
فضية الاطار
يرقب — باسما — تزاحم المناكب القصير
تمسح عيناه زجاج النافذات الأبيض الشفيف ..
كأنه يبحث عن أحد .
كأنه يرقب من شرفته ،
هرولة السارين فى تساقط الأمطار والبرد !

لكننى ..
حين استقرت عينه علىّ :
أدرت رأسى عنه ..
لم أقو على بريق عينيه المخيف !

* * *

وحينا تحملنى وأصدقائى فى الطريق .. موجةُ المرح
ونسترد روحنا فى الضحكات والغناء .
أبصره .. فى الجانب الآخر . يرنو مستخفاً ، باسما
فإن تجاوزناه .. ألقى عقب سيجارته على الطوار
وداسه مغمغما ..
ثم اختفى ..
كأنه شبح !
وفى طريق العودة الليلى .. ألقاهُ
يخرج من جوف الظلام فجأة .. على غير انتظار .
كأن باباً — فى الشتاء — مغلقاً .. قد انفتح
كأن تيارا من الهواء

يكنس من أعصابى الدفء .. وينساهُ !
.. يمر بى ، مدثرا بالمعطف الثقيل ،
هادىء الخطى ،

تلمع فى الظلام عيناه
يسأل — هامساً — عن الوقت بلا اكتراث
ويختفى ..
كأن احدى الشجرات احتضنته ..
صيرته بعض ظلها الكثيف !

وفى سويعات الضحى المشمسة المعتدلة
حين تنقر العصافير ثمار التوت ،
مستدفئة من لذعة الخريف
أجلس فى المائدة المنعزلة ..
محدثا صديقتى ..
فى ذلك المقهى الربيعىّ الأليف
— حيث يمر النيل راعيا مغنيّا
ويرفع الصباح راية الفرح —

مرتشفين من عصير الكلمات .. والثمار
معتنقين فى ضمائر الحروف ..
وفجأة ..
يسقط من يدى القدح !
ألمحه ممدا ساقيه فى المائدة المقابلة
يرمقنى من خلف نظارته السوداء خفية ،
مختبئا بسمته خلف صحيفة الصباح .. المهملة !

° ° °

وعندما دخلت « بارادای » فى اليوم الأخير
رأيته .. يخترق المقاعد الملقاة .. والأضواء
ويفتح الصنبور
مشعث الشعر ، يضج قلبه بالرعب واللهاث
.. تساقطت — قبل اغتساله — على الحوض النقى بقعة
لكنه لم يكترث !
رجّل فى المرآة شعره الغزير
ثم دنا من جمع اصدقائى الصغير

فقلبا عينين ثعلبيتين فى الوجوه ، صامتا
وفجأة ..
ألقى الينا ورقة دون اكتراث
ودون أن يلتفتا ؛
مضى الى الخارج ..
تاركا على المنضدة الحيرى بطاقته
.. كانت بطاقة سوداء ..
... ...
.. ومات فى المساء !

لا أبكيه

مصر لاتبدأ من مصر القرية   انها تبدأ من أحجار « طيبة »

انها تبدأ منذ انطبعت   قدم الماء على الأرض الجديبة .
ثوبها الأخضر لايبلى ، اذا   خلعته .. رفت الشمس ثقوبه .
انها ليست عصورا فهى الكل   فى الواحد ، فى الذات الرحيبة .
أرضها لا تعرف الموت فما الموت إلا عودة .. أخرى .. قريبة .
تعبر القطرة فى النيل فمن   حولها الرقص وأعياد الخصوبة .
فاذا البحر طواها ، نفرت   وأسترد الماء فى الوادى دروبه .
وأعاد الماء للنيل هروبه   وأسترد الماء فى مصر العذوبة .
فسقى النيل به — ثانية —   ظمأ البحر اذا ما مد كوبه !

هكذا شعبك يامصر ؛ له   دوره الماء ونجواه الرطيبة
مات فيه الموت يوما .. فابتنى   هرما للموت يستجلى غيوبه
أبدا يبنى ويأتى غيره   ناشرا فيه أساه وحروبه
فاذا راح أبتنى ثم ابتنى   فانثنى الغازى اليه بالعقوبة !
وكأن الذل فى الشعب ضريبة   وأبتسام الصبر قد صار ذنوبه
وكأن الدم نيل آخر   تستقى منه الرمال المستطيبة
كل أبنائك يامصر مضوا   شهداء الغد فى نبل وطيبة
الذى لم يقض فى الحرب قضى   وهو يعطى الفأس والغرس وجيبه
والذى لم يقضى فى الفأس قضى   حاملا أحجار اسوان الرهيبة
اسمعى فى الليل أنات الاسى   اسمعى حزن المواويل الكئيبة
انها اسماء من ماتـوا .. ولم   يبرحوا القلب فقد صاروا ندوبة
سيعودون ، فلا تبكى ، فما   يرتضى المحبوب ان تبكى الحبيبة
أترى تبكين من مات .. لكى   تستعيدى راية الفكر السليبة
والذى مات لكى ينفش فى   كل قلب ناشىء حرف العروبة
ولكى يحتضن الطفل حقيبة   ولكى تقتات بالعلم الشبيبة
ولكى يهوى حجاب الخوف عن   روح ربات الحجال المستريبة

ولكى يرفع سيف العدل فى   وجه ابناء المماليك الغريبة
والذى لولاه مامـرت لنـا   ـ فى عبور النار للحرب ـ كتيبة
اترى تبكين يامصر ؟ أنـا   لست أبكيه وان كنت ربيبه
شرف الأبناء أن يمضى أب   بعد أن قدم للمجد نصيبه
شرف للأب أن يمضى فلا   تعترى أبناءه الروح الزغيبة
انما يبكى ضعاف الناس ان   عجزوا ان يدركوا حجم المصيبة

١٩٧٣ م

العراف الأعمى

قولى من أين ؟
الصمت منصب ..
والكلمات بلا عينين !
... ...
الممنى الليل .. وأدخلنى السرداب
(قدماى نسيتهما عند الاعتاب
ويداى تركتهما فوق الأبواب)
انك لا تدرين
معنى ان يمشى الانسان .. ويمشى ..
(بحثا عن انسان آخر)
حتى تتآكل فى قدميه الأرض ،

وينوى من شفتيه القول !
الآف الاوجه فى وجهى ..
لكنك لا تدرين
أى وجوه تتدلى منها بسمات الزيف
ضائعة المعنى ، متأكلة الانف
... ...
أرشق فى الحائط حد المطواة
والموت يهب من الصحف الملقاة
أتجزأ فى المرآة
يصفعنى وجهى المتخفى بقناع الذل
أصفعه .. أصفع هذا الظل
كل الناس يفارقهم ظلهم عند الليل
الا ظلي ....
ينسل معى ، يتمدد فوق وسادي المبتل !
البسمة حلم
والشمس هى الدينار الزائف
فى طبق اليوم
من يمسح عنى عرقى فى هذا اليوم الصائف ؟

والظل الخائف
يتمدد من تحتى ، يفصل بين الأرض .. وبينى !
... ...
وتضاءلت كحرف مات بأرض الخوف :
(حاء .. باء ..)
(حاء .. راء .. ياء .. هاء)
الحرف السيف
مازلت أرود بلاد اللون الداكن
أبحث عنه بين الأحياء الموتى .. والموتى الأحياء
حتى يرتد النبض الى القلب الساكن
لكن .. !!
... ...
وأخيرا عدت
أحمل فى صدرى صمت الطاعة
وبلا .. ساعة
ماجدوى الساعة فى قوم قد فقدوا الوقت ؟

ورجعت بدون كتاب غير كتاب الموت ،
وضجيج الناس
أغنية .. كغطيط نعاس :
« لم نولد لنهز الدنيا »
« لم نخلق لنخوض معارك ! »
« نحن ولدنا ..
للالهام ..
للأحلام ..
للصلوات .. »
...
ضمينى فى صدرك .. حتى اتنبأ
وأنا لا أكتب .. أو أقرأ !!

— ١٩٧٤ —

نجمة السراب

صديقتي شدت على يدى ..
وقالت : لن أزورَ غُرْفَتَكْ
إن شئت .. فلْنبقَ معاً إلى الابدْ .
ولم أردْ
لأن ثوب العرس — فى معارض الأزياء —
نجمة تدور فى سراب .
ولم أزل أدقُّ باباً بعد بابْ
وخطوتى تنهيدة ، وأعينى ضبابْ
حتى بلغت غرفتى فى آخر المطافْ
وقطتى تلدْ ...
مواؤها : عذاب أنثى ليلة المخاضْ

أنثى وحيدة .. تلدْ .
... وأخلَدَ الجيرانُ للسُّكونْ .
وقطُّهمْ يجلسُ — فى الشباكِ — ناعس العيون
يلعقُ فى فرائِهِ المُنقَّط البَيَاضْ
يلعقُ — عن فرائه — عذابَ قطتى الممتدّ
.. سعت اليه ذات ليلةٍ ،
ولم تسلْهُ ثوباً للزفافْ !
لانّ ثوبَ العرْسِ
— فى معارضِ الأزياءِ —
نجمة تدور فى سراب !!

أيـــدوم النــهـــر

أيدوم لنا بستان الزهر
والبيت الهادىء عند النهر
ان يسقط خاتمنا فى الماء
ويضيع .. يضيع مع التيار
وتفرقنا الأيدى السوداء ..
ونسير على طرقات النار ..
لا نجرؤ تحت سياط القهر
ان نلقى النظرة خلف الزهر
ويغيب النهر .

أيدوم لنا البيت المرح
نتخاصم فيه ونصطلح
دقات الساعة والمجهول
تتباعد عنى حين اراك
وأقول لزهر الصيف .. اقول
لو ينمو الورد بلا اشواك
ويظل البدر طوال الدهر
لا يكبر عن منتصف الشهر
آه يا زهر ..
لو دمت لنا ..
أو دام النهر .

— ١٩٨٠ —

البكاء بين يدي زرقاء اليمامة ١٠٥

تعليق على ما حدث ١٩١

قصائد متفرقة ٤١٥